12

سلسلة الفكر الرسالي

أصول الحضارة

بين روح القيم وبراعة الشكل

سماحة آية اللّه السيد هادي المدرّسي

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

12

سلسلة الفكر الرسالي

أصول الحضارة

بين روح القيم وبراعة الشكل

سماحة آية الله السيد هادي المدرّسي

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

هوية الكتاب:

* **الكتاب:** أصول الحضارة بين روح القيم وبراعة الشكل.
* **المؤلف:** آية الله السيد هادي المدرسي.
* **الطبعة:** الأولى: ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م.
* **تحقيق:** مركز ذكرى للدراسات والأبحاث.
* **الناشر:** مركز الفكر الرسالي للأبحاث والدراسات.
* **الإخراج الفني:** الكليم جرافك:

mohd.he@gmail.com
+973 36577227

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ الستينيات من القرن المنصرم والفكر الرسالي يواصل عطاءآته في ساحة الفكر، وقد ساهم هذا الفكر في طريق نهضة الأمة، من خلال آلياته ومصادره الإسلامية الأصيلة المتمثلة في كتاب الله العزيز، وسنة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وآله الأطهار عليهم السلام، والعقل المسترشد بهديهم النيّر. وقد تبلور الفكر الرسالي في مدرسة رسالية راسخة في التجربة، واسعة في العطاء، للكثير من الجوانب التي اهتمت بها.

وتحولها إلى مدرسة فكرية رائدة يعني أنها تناولت وعالجت العديد من جوانب الحياة التي تصوغ حياة الإنسان كنظام حياة، فكان لها العطاء في الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية المختلفة.

ولأننا نؤمن بأن الفكر الرسالي قد قدم نظرياته وإسهاماته المعبّرة عن الروح النابضة والناهضة للإسلام ـ الذي أراده الله أن يقود الحياة – فإننا نقوم في هذه السلسلة من الإصدارات (سلسلة الفكر الرسالي)، باستظهار بعض إسهامات الفكر الرسالي وقراءاته، من خلال إسهامات مداد رجالاته، كبعث جديد، أملاً في أن يأخذ الفكر الرسالي موقعه الريادي في حياة الأمة، واكتشاف جوانبه المشرقة.

سلسلة الفكر الرسالي

هذه الدراسة

الحديث عن الحضارة قديم جديد، يبقى التداول حوله متجدداً، فلا يمكن لعجلته أن تتوقّف ولن يكون لتحدّيات الحضارة في مفاهيمها وفي واقعها نهاية، لأن التمكّن الحضاري صورة من صور تشكيل الهوية للجماعات والأمم، وهي تحكي سيرورة الأمم في مختلف أطوارها من القوة إلى الضعف، ومن الضعف إلى القوة. ومن هنا يأخذ الحديث عن الحضارة بعداً ذا أهمية بالغة، فلابد من تشكيل رؤية محكمة حول الحضارة والحضارات ابتداء من مفهومها ومضمونها وشروط نهوضها وأسباب انهيارها، وانتهاء بأشكالها وألوانها وأبعادها الجغرافية.

لطالما أخذ التمكّن الحضاري من التأثير في الأفكار وإعادة تشكيل الهويات وتغيير الانتماءات، حتى أصبح التشكّل الحضاري منافساً بل متفوقاً على عالم الأفكار والمعتقدات، التي يفترض بها أن تكون هي التي تصيغ هوية الفرد وانتمائه إلى الجماعة، وهذا الانحراف في تشكيل الهوية قائم على أساس الانبهار بقوة الشكل

أو بشكل القوة، الذي يزول بزوالها.. والنهج الصحيح يكمن في تشكّل الانتماء من خلال الأفكار والمعتقدات، التي لا يكون لشمسها غروب، سواء كانت الحضارة مبنية على أسسها أم لا، فإن الروح الحضارية باقية لا تتزلزل، تنتظر توفّر الإنسان الذي يمتلك الأوعية التي تُصبّ فيه روحها، فتدبّ الحياة في مجتمع الحضارة.

من هذا المنطلق فإن الساحة الفكرية (نخبة ومجتمع) بحاجة إلى معالجات جادّة غير متلبّسة بلغة رسمية تستهوي المطويات الأكاديمية وتكرارها، وغير متوارية خلف ركام الاصطلاحات الرنّانة كي تبتعد عن روح الفكر وبصيرة المعرفة. والدراسة التي بين أيدينا والتي خطّها يراع المفكّر المبدع والعالم الرّباني سماحة آية الله السيد هادي المدرّسي (حفظه الله)، إنما اعتمدت لغة المزج المعرفي بين بصيرة الوحي المتمثل في النص الديني (قرآناً وسنة)، ونور العقل لتفهم الواقع ومقاربته.

فنحن بحاجة ماسّة إلى الوقفات الصريحة كي نغذي القناعات بأسس فكرية متينة، وقراءة للواقع كما هو لا كما يصوّره الإعلام إلى الجماهير، فكل العتب على الكثير من النخب في ساحة الفكر

والثقافة التي أخذها الانبهار بالحضارات على أساس قوّة الإبهار، فاختلط لديهم الهوى بالهدى، فعطفوا الهدى في مدادهم على الهوى، وصار تابعاً غير متبوع، حتى وصل الحال إلى تمجيد الظلم الواقع على الأمم والمجموعات والوقوف في صفّه، وإدانة الظلم الفردي المحدود، فيقع الظلم والقهر والنهب على ملايين البشر فيصبح في ثقافتهم أمراً سائغاً أو يدرج ضمن المسكوت عنه نتيجة الانبهار من الشكل الحضاري فيكون ذلك حاجباً عن الفكر، وهو في حقيقته الصريحة مجرّد هوى متبع، أو خوف ورهبة لا معنى لها، فمن علامات ذلك ترى أن أحدهم يؤذّن في الناس في كافة وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، بأن مجتمعاتنا المقهورة لا يقف الناس عند شراء الخبز صفاً منتظماً كما يفعل بعض من في الغرب، ومع أن هذه الحقيقة بسيطة ومحدودة بل ومغلوطة، لأن الناس يشترون بأموالهم الخبز ولا أحد يتقدّم على الآخر سواء كان شكل الوقوف منتظماً أم حشراً، ومع ذلك، فإن المثقف المنبهر والمتواري خلف المصطلحات الرنانة الجوفاء، لا يولي أهمية لتكالب الدول الغربية على مقدرات الشعوب المستضعفة، ففي الحقيقة التي ينبغي أن تقال، أنهم يتسابقون محشورين بغير صف منتظم على سرقة أموال ومقدرات الشعوب، وفي مجتمعاتنا إنما

يقفون عند المخبز كي يشتري كل منهم بماله ما يحتاج إليه في قوت يومه، ففسدت الآلة الفكرية، فساء الحكم، وما ذاك إلا لأن الأول من فعل الحضارة القوية القائمة المبهرة برغم فداحته ووضوحه، والثاني من فعل مجتمعات غربت عنهم شمس الحضارة ولم يعد لهم قوة الإبهار وأشكاله.

إن خاصّية الممازجة بين روح النّص الديني ونور العقل وصراحته وواقعيته، هي الخاصية العامّة التي اتصفت بها هذه الدراسة، لتضاف إلى معالجات الفكر الرسالي في ساحة المعرفة، والمؤلف هو سماحة آية الله السيد هادي المدرسي - الغني عن التعريف - المفكّر الرسالي في مجالات شتّى فيما يرتبط بالدين ومقولاته ومعالجاته العقدية والمعاصرة، ولكن أهم ما يمكن أن يقال في هذا السياق، أن سماحته من الذين نثروا البذور الأولى في مسيرة الفكر الرسالي، وممن رفع بنيانه، وأوضح بنانه، ولمعالجاته القيمة تأثير بالغ في العقول، وكان سبّاقاً في الأطروحات المتجدّدة والمعالجات الحضارية المختلفة في مجال الحضارات وروح الدين وشموليته، والوثوق بقيم الدين في مختلف مناحي الحياة، منذ أكثر من أربعين عاماً.

منهـا كتـاب (**صـور متقابلة عـن حضارتـين متقابلتـين**) وهو كتـاب صـدر في سـبعينيات القـرن المـاضي، بـيّن فيـه محوريـة الإنسـان في الحضارة الإسـلامية، وهامشيّة الإنسـان في الحضارة القائمـة التـي تتظاهـر بالتسـلّح بالعلـم، إلا أنهـا تسـتخدمه مـن أجـل ترتيب الإنسـان كحلقة أضعف في أولوياتهـا، وبشّر بأمضى سـلاح لمواجهـة ذلـك التغـوّل، وهو سـلاح الإيـمان والضمير.

وكتاب (**هذا الدين للقرن الواحد والعشرين**) الذي صدر في الربع الأخير من القرن العشرين حيث ثورة العلم والانبهار بالكشوفات الجديدة، قد بين خلال صفحاته القليلة أن الكشوفات الجديدة لا تعني أننا لسنا بحاجة إلى الدين وإلى الله وإلى الإيمان بالغيب، بل إن فهم العلم بشكل صحيح، هو ترسيخ للدين ومعرفة أعمق بالله تعالى، والتعامل مع كل ذلك يقوّي ضرورة الحاجة إلى الدين.

وكتاب (**تهافت النظرية الداروينية وسقوط النظريات التابعة**)، الذي ناقش فيه نظرية داروين المسماة بالنشوء والارتقاء وتحديد أصل الإنسان، وبيّن ضمن صفحاته أن مشكلة المفكرين الماديين مع الحضارة، وأن هوس البحث عن الاستقواء وصناعة

الأسلحة لصنع مستقبل بائس للإنسان، هي مشكلة الفكر المادي أساساً (فإنهم يبتعدون عن الإنسان بمقدار ما يبتعدون عن الله، فيذبحونه في سبيل المصالح المادية، ويفتكون به ويسلخون جلده، ثم يشربون نخب الانتصار عليه! فكيف يمكن أن ينقلب الجلاد إلى باحث عن الحب في قلبه للضحية؟ حقاً أن من العبث أن يفكّر العالم في بناء مستقبل حضاري يقوم على أساس من العدل والحرية والتعاون مادام يبني فكره على أساس من تبرير التدمير والاستعباد والتمزّق).

وكتاب (**التحديات الكونية ومتطلبات ترميم الحضارة**)، الذي صدر سنة ٢٠١١ ميلادية، وقد صدرت مقالاته قبل ذلك التاريخ بسنوات ضمن مجلة البصائر الدراساتية، قد كانت لسماحة السيد المؤلّف فيه وقفات جادة، مدعمة بالإحصائيات والمعلومات الدقيقة، حول الأزمة الحضارية القائمة، حيث سلّط فيها على عدة اتجاهات واقعية في ممارسة الأمم المتحدة وأرباب الحضارة الغربية، مبيّناً مواطن الضعف وكوامن السلب في أصل الفكر والأداء، ومن تلك العناوين: العولمة وسلبياتها، وإصلاح الديمقراطية، وإنصاف المضطهدين ومراعات حقوق الإنسان، ومعالجة ظاهرة

الانتحار، والخروج من شرنقة الأقوياء ومواجهة الفقر، وإنقاذ الطفولة البريئة، وحوار الديانات ومعالجة مشاكل العالم الثالث.

وأما كتاب **(لئلّا يكون صدام حضارات)** الذي تم تأليفه ضمن دائرة الجدل العالمي القائم على تجاذبية الصراع الحضاري بين التبشير بالصدام الحضاري والتبليغ للاستحواذ والهيمنة الحضارية أحادية الطرف، صدر أواخر القرن المنصرم في عام ١٩٩٦ ميلادية عن دار الجديد، فكانت هذه المعالجة مخاطبة كوامن الخير لذلك الإنسان الممسك بزمام القوة، بأن يتنبّه للمصالحة بين السياسة والقيم والأخلاقية، كي تؤسّس العلاقة الحضارية على أساس التجاذب الإيجابي، فيتم رفض واقتلاع نوازع الشر، وزرع بذور كوامن الخير وتعميمها لصياغة مستقبل مشرق للبشرية.

إضافة إلى العديد من الكتب والكتيبات التي تعالج موضوع الحضارة والرؤية الكونية، صدرت خلال الربع الأخير من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، منها **(رسالة المسلم إنقاذ العالم)**، و**(الحشيش قاتل الإنسان ودعامة الاستعمار)**، **(الصراع والتحدي في حياة الرسالي)**، **(الإسلام دعامتان، لا.. نعم)**، **(نقد النظرية الماركسية)**، **(العالم يبحث عن خلاص)**، **(الردّ على كتاب**

آيات شيطانية)، (الصراع الإسلامي الإسرائيلي)، (الأمّة بين عوامل التقدّم وأسباب الانحطاط)، (الإسلام والإيديولوجيات المناوئة إلى أين؟)، (الإسلام أبداً)، (الإسلام في مواجهة الجاهلية) (الإسلام منهج الحياة) وغيرها.

وهذا الكتاب الذي بين يديك **(أصول الحضارة، بين روح القيم وبراعة الشكل)** فهو رؤية شاملة للحضارة وأسس قيامها، ومساراتها، وعوامل سقوطها.

فحديث سماحة آية الله السيد هادي المدرسي عن الحضارة لم يكن وليد الساعة، بل هو حديث قديم جديد.

مركز الفكر الرسالي

لماذا يجب أن نكتب عن الحضارة؟

قال: أنتم كأمّةٍ متخلّفة، كيف يمكنكم أن تنظّروا للحضارة؟

قلتُ: لسنا أمّة متخلّفة، وإن كان الغرب يحاول أن يصوّرنا كذلك، ولكنّ المتخلّفين فينا هم الحكام الظلمة، الذين يؤيّدهم الغرب بالمطلق.

قال: ولكن إذا كانت الشعوب متقدّمة، فلا بدّ أن يكون حكامها متقدمين أيضاً.

قلتُ: هذا صحيح، نحن متقدّمون في مجالات معينة، ولكنّا متخلّفون في مجالين وهما:

- السكوت على الظالمين..
- والخضوع لسلطان الإغراء والتهديد في هذا المجال..

نعم نعترف بأنّنا متخلّفون هنا لأنّه: «**كَما تكُونُوا يوَّلى عَلَيكُم**»[1].

---

(١) كنز العمال، ج ٦، ص ٨٩.

فقدنا الشعور بالغضب تجاه ما يجري علينا من الظلم والطغيان فمن يحكم نخضع له بشكل عام، وكما قال عمرو بن العاص عن شعبٍ من الشعوب العربية قال: أرضها ذهب، ونساؤها لعب، ورجالها تُبّع لمن غلب.

لو كنا نتّبع الإمام عليّاً عليه السلام لبقينا على المحجة البيضاء، ولكنّ تخلّف عنه مَنْ تخلّف، وخانه مَنْ خان، وخضع للإغراء والتهديد مِنْ قبل أعدائه مَنْ خضع فوصلت حالتنا إلى ما نحن عليه.

في هذا الجانب نحن متخلّفون، ولكن ليس بالمطلق؛ بمعنى أنّ هنالك شعوباً في منطقتنا عرفوا هذه الحقيقة، فتمرّدوا على الظلم والطغيان، ولكن الغرب كعادته يحاصرنا ولا يزال.

الحضارة الغربيّة قائمةٌ على الغلبة والتهديد، والوعد والوعيد وفرض إرادتها على الشعوب الأخرى.

قال: هل تتوقع أن يتغير هذا الحال؟

قلتُ: نعم، فالحضارة الآن في حالة تحوّل من الغرب إلى الهند الصينية، وهذا يعني أنّ في استطاعة الشعوب أن تلتحق بركب الحضارة المستقبليّة، وتتخلّص من ربقة الحضارة القائمة التي تعيش أسوأ أيامها، وتفرض علينا التخلف والتبعية، وتؤيد أسوأ

الحكام المستبدين في التاريخ، ولكن في اعتقادي أنّ هذا سيتغيّر أيضاً خلال القرنين القادمين.

قال: وهل تنتظرون إلى أن ينتهي هذا القرن، ويأتي قرن آخر؟

قلتُ: سنة الله تعالى وسياسته قائمة على مداولة الأيام وهو القائل: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[1]، إلّا أنّ ذلك -كما تقرأ في هذا الكتاب- لا يحدث بين ليلة وضحاها.

إنّ التاريخ شأن متحرك، ومن هنا فإنّ مركز الثقل والقوّة ينتقل من أمّة إلى أخرى، بمقدار ما يبذل أفرادها من جهد، ويوفّرون في أنفسهم من شروط الحضارة. فإذا استيقظت أُمّة من بعد سبات عميق فإنّها سوف تستطيع أن تحقق نهضة هائلة.

وهكذا تدخل شعوب لا تاريخ لها، ولم تكن لها مساهمات ملموسة في تكوين الحضارة الإنسانية، تدخل إلى التاريخ بقوّة واقتدار، في الوقت الذي تكون فيه شعوب لها تاريخها، ومشهود لها بمساهمات كبرى في تكوين الحضارة الإنسانية، قد خرجت من التاريخ.

نحن شعوبٌ واعية، ولكن حكامنا متخلفون ويمتلكون

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

ما يمتلكون، وفي الحقيقة فإنّ عصرنا يشبه عصر موسى بن عمران عليه السلام أبان حكم فرعون ..

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[(١)].

بنو إسرائيل في عهد فرعون لم يكونوا متخلفين ولكن القوّة كانت لدى فرعون وملئه، إلّا أنّ ذلك لا يستمر، قوّة المال قوّة زائفة، وكذلك قوّة السلطة فإنّهما قوّتان زائفتان، وليستا حقيقيّتين ولا بدّ أن يأتي يوم يكشف الله تعالى هذه الغمّة عن هذه الأمّة، فيكون للناس كلمتهم وموقفهم وقوّتهم وسلطانهم، وحينئذٍ تجد الشعوب الأخرى تبحث عمّا نحن عليه، وتحاول أن تفهم ديننا ومُثلنا وقيمنا إن شاء الله.

نحن نكتب عن الحضارة لأنّ هنالك جانباً من التخلف في هذه الأمّة لا بدّ من معالجته، ومن ثمّ فنحن لسنا متخلفين حينما نكتب عن الحضارة، أؤلئك الذين يخافون من الكلمة ويعاقبون الناس إذا طالبوا بالحرية والعدالة، هم المتخلفون وهم الحكام وليسوا الشعوب.

(١) سورة يونس، الآية ٨٨.

ما هي الحضارة؟

اختلف الباحثون في معنى الحضارة، ومن ثمّ اختلفوا في الملاكات التي بناءً عليها يمكن بناء الحضارات، فمثلاً يرى البعض أنّ الحضارة هي مصدر فعل (حَضرَ) يعني رحل من البداوة إلى الحَضَر، باعتبار أنّ الحضارة خلاف البداوة، ولكنّ هذا المعنى ليس متفقاً عليه، لأنّ الوجود في المدن لا يعني بالضرورة التميّز الثقافي والعملي والمادي والمعنوي الذي تتطلبه الحضارة، فربما ينتقل البدو إلى المدينة، لكن تبقى عاداتهم وتقاليدهم وجاهليتهم مستحكمة في نفوسهم فلا يكونوا متحضرين، فوجودهم في داخل المدينة لا يعني أنّهم بنوا حضارة، لأنّ الحضارة ترتبط بأبعاد الإنسان المختلفة أي البُعد الإيماني والقانوي والأخلاقي والفني، كما ترتبط بالعادات والتقاليد والنظم التي تميّز مجتمعاً ما عن غيره، كما ترتبط أيضاً بحصيلة ما يكتسبه الفرد من عوامل السعادة في مجتمعه.

وهكذا فإنّ مفهوم الحضارة مختلفٌ عليه، بسبب اختلاف

النظرة إليها من مدرسة إلى أخرى، فالذين يرون أنّ الحضارة تقتصر على التقدم المادي للمجتمع، تختلف نظرتهم عن نظرة أولئك الذين يرون أنّ العوامل المادية ليست هي كلّ شيء، بل يرى البعض أنّ الحضارة مفسدة للعمران، لأنّها تؤدي إلى تكوّن المدن الثرية المترفة، والتفنّن في أنواع الترف، ومن ثمّ فإنّ سكّان المدن المتحضّرة يميلون إلى الراحة، مما يشجع المتخلفين عن حضارتهم على غزوهم، والاستيلاء على أموالهم، ويرى هؤلاء أنّ دورات الحضارة هي عبارة عن: وجود متخلفين، كسكان البادية يقومون بغزو المتقدمين، ثمّ يصبح الغزاة مترفين فيغزوهم أناس آخرون، وهذا تعريف ضيّق سقط فيه بعض الذين تناولوا مسألة الحضارة من أمثال إبن خلدون[١].

على كلّ حال فإنّه يمكن القول هنا أنّ الحضارة طور طبيعي في مختلف المجتمعات، حيث إنّ الإنسان تاريخياً كان يعيش في الغابات أو الكهوف، ومن ثمّ كان متخلفاً في عاداته وتقاليده وفهمه وإدراكه لحياته، وكان متخلفاً في النظام الاجتماعي الذي

(١) تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبدالرحمن بن خلدون، ج١، ص.٢١٦ .

سنن قيام الحضارات وسقوطها: قديماً وحديثاً بآراء ابن خلدون، عبداللطيف الحميدان، ص١١ - ١٢.

يربط الناس بعضهم ببعض، ثمّ سعى للتغيير ومن ثمّ طوّر حياته وتقدم في مختلف المجالات فأصبحت عنده حضارة.

إنّ الحضارة عبارة عن كيان مركب وليس بسيطاً، لأنّه يضم مجموعة من القيم والعادات والتقاليد والقوانين وما شابه ذلك، ولو أنّنا أردنا أن نعرّف الحضارة حسب البصيرة الإسلامية -وكما حدثت في التاريخ- فإنّنا نرى أنّها كانت مجموعة من القيم والمفاهيم المرتبطة بجميع مناحي الحياة السياسية والعلمية والدينية والإدارية والاقتصادية، وبعبارة أخرى فإنّ للإسلام نظرة شمولية للحياة والأحياء، بما يلائم حاجات الإنسان وحاجات ما حوله من الأحياء الأخرى، حتّى النباتات والجمادات، ومن ثمّ فإنّ الحضارة بهذا المفهوم هي عبارة عن عمارة الأرض والحياة، وعمارة النفوس أيضاً وليست الحضارة هي مجرد نمط الحياة المناقض للبداوة، كما أنّها ليست مقتصرة على بناء البيوت، وفتح شوارع، وإقامة المصانع.

يقول ربّنا في القرآن الكريم: **﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ**

مُّجِيبٌ﴾[1]، فالآية الكريمة تبينّ أنّ الله هو الذي أنعم على البشر بالحياة، واستعمرهم في الأرض، كما وتبيّن أنّ العمارة هذه ليست قائمة على الجانب المادي فقط، وإنّما على الجانب المعنوي والروحي أيضاً، ولذلك فالله يطلب من البشر الإقرار بكونه هو الخالق المنعم، كما يطلب منهم التوبة والاستغفار، وإحياء الجوانب الروحيّة في داخله.

إذن فالحضارة هي: «**حضور الإنسان عند الإنسان، وتعاونه، وتفاعله معه، ابتداءً من الحضور المادي وانتهاءً بالتفاعل المعنوي، ومروراً بالتعاون العملي، وهذه البنود هي التي تشكل قواعد الحضارة**»[2].

الله عزّوجلّ حينما يتحدث في القرآن الكريم عن المجتمع الإسلامي الفاضل الذي أسسه وشيّده نبينا الأكرم ﷺ في المدينة المنورة، فإنّه لا يتحدث عن أنواع المساكن، أو هندسة المدينة، أو طريقة تعبيد الطرق، ولا عن الأمور المعيشية البسيطة من أكل وشرب وبيع وتجارة، إنّما يتحدث عن أسس وقواعد الحضارة، وتلك الروح الكبيرة التي استطاعت أن تستوعب شتات القبائل

(١) سورة هود، الآية ٦١.

(٢) الحضارة الإسلامية.. آفاق وتطلعات، المرجع السيد محمد تقي المدرسي، ص ٣١.

العربية المتناحرة التي كان شعارها الخوف، ودثارها السيف، والتي كانت تعيش في وضع متأزم، فتحول الشتات إلى حضارة، والقتال إلى ائتلاف، وهذا ما تبينه السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة، حيث تقول:

«..وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ؛ مَذْقَةَ الشَّارِبِ، وَ نُهْزَةَ الطَّامِعِ، وَ قَبْسَةَ العَجْلَانِ، وَ مَوْطِئَ الأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَ تَقْتَاتُونَ القِدَّ، أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ تَبارَكَ وَ تَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم بَعْدَ اللَّتَيَّا وَ الَّتِي..»[1]

كما أنّنا نجد أنّ الحضارة اليوم لا تقتصر على معنى الحياة في المدن المناقضة للعيش في الصحراء، وإنّما هي عبارة عن ارتقاء المجتمعات، وتطوّرها في جوانب مختلفة من الحياة المادية والمعنوية للإنسان.

إضافة إلى أنّ الحضارة ليست حكراً على فئة دون أخرى، بحيث يمكننا القول إنّ مجتمعاً من المجتمعات لا يمكن أن يصنع حضارة، وأنّ مجتمعاً آخر هو الوحيد القادر على أن يفعل ذلك،

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج، ج١، ص: ١٠٠.

فكلّ الأمّم إذا أخذت بأسباب العلم، وتمسّكت بالقيم والمثل، وسعت إلى تطوير حياتها، فإنّها قادرة على أن تتقدم في الحياة، ومن ثمّ فهي قادرة على بناء حضارة متميّزة متقدمة.

كيف تُولد الحضارات؟

هل كلّ حضارة جديدة تأتي نتيجة إلغاء حضارة سابقة عليها، أم أنّها تولد منها كما يولد الإنسان من رحم أُمّه، وسقوط الحضارة السابقة إنّما هو مثل موت الأم وبقاء مولودها، بمعنى أنّ الحضارات تتوالد من بعضها، وليس سقوط الحضارات السابقة شرطاً لقيام حضارة جديدة، كما أنّ موت الأم ليس شرطاً لولادة أولادها؟

للجواب على هذا السؤال لا بدّ أن نعرف أنّ هنالك شكلين لولادة الحضارات:

- **الشكل الأول**: أن تولد الحضارة مثلما تُولد الشرارة في الظلام، نتيجة إرادة عُليا، مثل الحضارة الإسلامية التي جاءت على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمّم، بفعل نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- **الشكل الثاني**: أن تأتي الحضارة نتيجة لتفاعل الحضارات السابقة، مثل الحضارة الغربية التي نعاصرها، والتي

جاءت نتيجة التفاعل بين الحضارات اليونانية والإسلامية والصينية وغيرها.

وفي ضوء ذلك نجد أنّ الحضارة حينما لا تكون بسبب إرادة عُليا فإنّها لا تلغي سوابقها من الحضارات، بل تتفاعل معها.

ولا شكّ أنّ الأمر في ذلك يشبه خلق الإنسان، فلربّما تأتي إرادة عليا بخلق الإنسان من العدم مباشرة كما حدث بالنسبة إلى أبي البشرية آدم عليه السلام، أو كما حصل لنبيّ الله عيسى عليه السلام، **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**[1].

ولكنّ هذه الإرادة العليا لا تأتي هكذا دائماً، فقد تأتي مرّة، أو مرّتين، ثمّ لا بدّ من أن نتبع سنّة الله تعالى في خلق الإنسان؛ أي عملية التزاوج، يقول تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾**[2].

كذلك الأمر بالنسبة إلى الحضارات، فإنّ انتظارنا أن تولد

(١) سورة آل عمران، الآية ٥٩.

(٢) سورة الاعراف، الآية ١٨٩.

حضارتنا من جديد بإرادة سماويّة عليا، من دون العودة إلى أصالتنا وقيمنا، ومن دون التفاعل مع الحضارات القائمة، ومن غير سعيٍ جادّ لها، ليس سليماً ولا صحيحاً ولا ممكناً، بل لا بدّ من العمل الدؤوب وبذل الجهد المضني، والتفاعل بين الحضارات لكي تولد الحضارة الإسلامية من جديد.

ومن هنا فإنّنا لا نؤمن بضرورة رفض الحضارة القائمة بالمطلق، وإلغائها كشرط مسبق لولادة حضارتنا من جديد.

كما لا نؤمن بصراع الحضارات -بالمعنى الذي طرحه منظّروه - كحتميّة تاريخيّة.

وإنّما نؤمن بتفاعل الحضارات وتكاملها، فإذا استطاعت أمّة من الأمم أن تقدّم حضارة أفضل من سابقتها، فسوف يُكتب لها النجاح، وحينئذٍ تخرج غيرها من الساحة، وتكون بديلة عنها.

ونجد مثال ذلك في نهضة اليابان، حيث تفاعل الشعب الياباني مع الحضارة القائمة ليس من خلال الذوبان فيها، ولا من خلال رفضها، وإنّما من خلال التفاعل معها، والإضافة فيها.

وكذلك نجد مثالاً في الحضارة الصينيّة التي لا تزال تحبو لكي تحتلّ الصدارة في عالم اليوم.

فكلتا الحضارتين لم تلغيا الحضارة الغربيّة، ولكنّهما تسابقتا معها، وأضافتا عليها فأنتجتا حضارة.

عوامل قيام الحضارات

ما هي عوامل وأسباب قيام الحضارات؟

وهل يمكن أن تتشكّل الحضارة بشكل عشوائي من دون إرادة الإنسان، وبالتالي فإنّ قيام حضارة في مكانٍ ما لا يمكن أن نعدّه إنجازاً لأهل هذه الأرض؟

الجواب: قبل كلّ شيء لا بدّ من معرفة الظروف والتجارب التي مرت على الأمّم والبشر، للاستفادة من نقاط القوة في تجاربهم والابتعاد عن نقاط الضعف لديهم، فـ«**حِفْظُ التَّجَارِبِ رَأْسُ العَقْلِ**»[1]، و«**فِي كُلِّ تَجْرِبَةٍ مَوْعِظَةٌ**»[2] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن هنا يمكن القول إنّ عوامل قيام الحضارات هي أمور ترتبط بتصرّف الإنسان وحسن نظرته إلى الحياة، ونشاطه في مختلف المجالات، ولو افترضنا أنّ الإنسان تخلّف في عقله، وعلمه، كما لو وُلدَ -مثلاً- أطفالُ جيلٍ كاملٍ متخلفين عقليّاً،

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص: ٢٣١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٤٧٧.

فإنّه لا يمكن لهؤلاء أن يقيموا حضارة، بل لو أُعطيت لهم نتاج الحضارات السابقة فإنّهم سيدمّرونها.

وهكذا فإنّ الإنسان هو وسيلة قيام الحضارات، وهو الهدف من وراء قيامها، فأي مجتمع بدون حضارة سيكون مجتمعاً متخلفاً، والحضارة لا بدّ أن تنمّي عقلية الإنسان، وأن تبعده عن الهمجيّة.

وعلى كلّ حال فإنّ أسباب قيام الحضارات متعددة، وإن كان لكلّ حضارة قامت في التاريخ امتياز معيّن في جانب من جوانب الحياة، لكن لا يمكن إلغاء العوامل المشتركة التي قلنا إنّها تشكّل حالة مركبة -أو سمّها معقدة- لقيام الحضارات، فقدرة مجموعة من البشر في فترة من الزمن على إقامة حضارة إنّما يرتبط بالجوانب العلمية والثقافية والظروف البيئيّة، والعوامل الاقتصادية، كما يرتبط بإرادة الإنسان وطموحه وعزمه، ويرتبط حتماً بالقيم الاجتماعيّة التي يلتزم بها الناس.

ربّما تكون بعض هذه العوامل أكثر توفراً من غيرها في هذه الحضارة أو تلك، ولكن في نهاية المطاف لا بدّ أن تكون كلها موجودة لقيام حضارة مّا.

في الرؤية الغربية فإنّ قيام الحضارات يرتبط بعاملين وهما:

الإنسان والطبيعة، إمّا مجتمعين أو منفردين، ومن ثمّ فإنّ بعض الباحثين الغربيين يعتقدون أنّ العرق عامل أساسي في نشوء الحضارة، فيرون أنّ الجنس الأبيض، بما يتمتع به من خواص متميّزة -حسب رأيهم- هو صانع الحضارات، أمّا الزنوج في نظر هؤلاء فإنّهم قلَّ ما يكونون قادرين في يوم من الأيام على بناء الحضارات، حتّى قال بعضهم -وهو الفرنسي ألكونت دى جوبينو- : «إنّ الأجناس المتخلفة والمنحطة غير مستعدة بطبيعتها لتقبل الحضارة، ولا تصلح إلّا للعبودية والرّق، وللعمل كآلات حيّة، وحيوانات مستأنسة لدى الأجناس الراقية ».

وبالمحصلة فإنّهم يعتقدون أنّ هنالك أجناساً قادرة على بناء الحضارات، بينما هنالك أجناس أخرى غير قادرة على بناء الحضارات، أو ذات قدرة قليلة.

وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فقال: إنّ الحضارة لا تولد أو تتقدم إلّا بالغلبة والغزو، أي غزو دولة لدولة، أو أمّة لأخرى، وغلبة جنس على آخر.

أمّا من يرى تأثير الطبيعة في قيام الحضارات فإنّه يرى أنّ العوامل البيئية تلعب دوراً كبيراً ومؤثراً في بناء الحضارة وتطورها،

فقيام الحضارة يتوقف على خصائص البيئة وإمكاناتها، ولذلك فإنّهم يرون أنّ البيئات ذات المناخ المعتدل ذات حظ أكبر في قيام الحضارة، أو البيئات ذات الموارد الطبيعية الوفيرة، هي الأخرى لها نصيب أكبر في قيام الحضارة.

لقد أخطأت هذه النظريات لأنّها انطلقت من عوامل مادية بحتة، وحصرت عوامل قيام الحضارة بأمور مادية فقط، صحيح أنّ للعوامل المادية دورٌ في قيام الحضارات، ولكنها ليست هي الوحيدة، فهل يمكن القول: حيثما وُجدت بيئة غنية بالموارد الطبيعية فإنّ حضارة مزدهرة لا بدّ أن تقوم؟

أو حيثما وُجد عرقٌ أبيض فإنّه لا بدّ من نشوء حضارة؟

كما أنّ الغرب أخطأ حينما اعتبر أنّ هنالك صراعاً بين الإنسان والطبيعة من حوله، رغم أنّ الطبيعة أساساً وُجدت لخدمة الإنسان، ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[1]، فالصراع بينهما أمرٌ غير وارد، نعم قد يكون هنالك تدافع في بعض المجالات لكن أن نعتبر الطبيعة نقيضة لحاجات الإنسان أو العكس، فهذا غير

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

صحيح، إنّنا نعتقد أنّ العلاقة بين الإنسان وبين الأحياء من حوله والنباتات والجمادات هي علاقة تكامل، لا علاقة صراع.

ثمّ إنّ من يرى الطبيعة متناقضة مع الإنسان سيعمل على إفساد البيئة الكونية، وهذا ما نجده بوضوح في الحضارة القائمة التي لا تلتزم بالقيم الأخلاقية، بل إنّها أوجدت مشكلات كبيرة للبشرية مثل استنفاد الموارد، وإحراق مصادر الطاقة المخزونة، واستخدام أسلحة الدمار الشامل، وشن الحروب وإفساد البيئة، وبعض هذه العوامل ترجع إلى حالة الأنانية لدى المسؤولين وأصحاب القرار في هذه الحضارة، حيث قد يرى عرق معين أنّه أولى بالحياة من غيره، ومن ثمّ فهو لا يهتم بإفساد حياة الآخرين من أجل مصالحه، وبعبارة أخرى بدل أن يتكامل مع غيره يتصارع معه، ويحاول أن ينفيه، فإذا حصل على مصادر القوّة قضى عليه.

ولا بدّ هنا من بيان نقطة مهمة جداً في قيام الحضارات، وهي وجود العامل الغيبي في قيام الحضارة، ذلك أنّ لله عزّ وجلّ سنناً في التداول، فربّنا لأنّه يريد أن يمتحن جميع المجتمعات البشرية فهو أحياناً يعطي بعض المجاميع القدرة على التقدم ليمتحنهم بذلك، يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾[١].

أمّا في الحضارة الغربية فهنالك استبعاد للبعد الغيبي تماماً، فهم يقصرون كلّ شيء على المادة والماديات ولا غير، وعالم الشهود عندهم هو الأساس، وليس الغيب، بينما نحن نعتقد أنّ القيم الحقة لها كلّ التأثير في قيام الحضارات، ولغيابها كلّ التأثير في سقوطها، فمثلاً الذين يظلمون فهم في الدرجة الأولى يظلمون أنفسهم، وبتعبير القرآن الكريم: **﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٢]، لأنّ من المعادلات التي وضعها الله في هذا الكون معادلة: إمّا أن تعيش في مجتمع عادل، أو لن تعيش، وإمّا أن تتعامل مع غيرك بإحسان، أو يتعامل غيرك معك بإساءة.

الغربيون اهتمّوا بالجانب المادي الذي يرتبط بإشباع الغرائز، وأهملوا الجانب الروحيّ، الأمر الذي أدّى لكوارث كبيرة في الحياة، وحدوث ظلم كبير، ليس فقط بحق الآخرين، وإنّما في أخلاقيّات الجماعات التي تعيش في ظل تلك الحضارات.

بينما يقول الإمام علي عليه السلام: «**أنعم الناس عيشاً من عاش في عيشه غيرُه**».[٣]

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

(٢) سورة الحشر، الآية ٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص ٣٠٠.

فأن تعيش سعيداً وتساهم في سعادة غيرك، وتكون في مجتمع متقدّم وتخدم غيرك، وأن تصعد في قمة الجبل وتمد يدك إلى غيرك لكي ترفعه معك إلى القمة هذا هو المطلوب، وهذا هو السلوك الحضاري الذي يبني المجتمعات السليمة.

إنّ النظرية الغربية هي نظرية ضيقة الأفق، لأنّ هؤلاء يحصرون الحضارة في عرق معين، أو نطاق معين، أو دولة معينة، ويمكن القول إنّ انفصال الحضارة عن الدين في المجتمع الغربي هو الذي أدّى إلى فساده وانحلاله، وإلى تفكّك الأسرة، وانتشار المخدرات، وغيرها من المشاكل التي في النهاية سوف تؤدي إلى دمار حضارتهم.

نحن نعتقد أنّ الله عزّ وجلّ خلق الحياة للإنسان، وأمره بعمارة الأرض، كما أمره بتزكية النفس، ﴿..**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**﴾[1]، ولذلك فإنّ أيّ تغيير في العالم يبدأ من تغيير النفوس، فقيام الحضارات وسقوطها يرتبط ارتباطاً مباشراً بنفسية الإنسان، وإرادته، وإنّما الطبيعة هي مجرد أداة، كما أنّ البقاء على قمّة التقدّم مرتبط بصلاح النفوس وفسادها.

(١) سورة هود، الآية ٦١.

من هنا فإنّ الإيمان محور أساسي في تقدّم الأمّم، فالإيمان يؤدّي إلى الالتزام بالأخلاق كالصدق، والإخلاص، والأمانة، ومحاسبة النفس وضبطها، كما أنّ الإسلام يدفع الإنسان إلى الالتزام بالقيم والمثل العليا كالعدل والكرامة وإحقاق الحق وإعطاء الحقوق، وكلّ ذلك يؤهل البشر إلى بناء مجتمع متقدم في جميع الأبعاد.

فعلى سبيل المثال نجد أنّ الإسلام يبيّن حقيقة مهمة وهي أنّ المجتمع الذي يغيب فيه العدل فإنّه مجتمع سينهار عاجلاً أم آجلاً، وإن تمتع بكل عوامل التقدم المادية وشتى أنواع الرفاه، ذلك أنّ «**مَنْ عَدَلَ تَمَكَّنَ**»[1] كما يقول الإمام علي عليه السلام، وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «**ثَبَاتُ الدُّوَلِ بِإِقَامَةِ سُنَنِ العَدْلِ**»[2].

فالعدالة تشتمل على كلّ الفضائل، وهي الحقيقة التي تحرّك البشريّة نحو الخير في كلّ العصور؛ ذلك أنّ العدل يبني، والجور يهدم، والعدل يقيم الحضارات والجور يقضي عليها، والعدل يَجمع والجور يفرِّق، والعدل يُزيّن البلاد ويريِّح العباد، والجور يقبّح ويتعب ويفسد.

وهكذا يمكن القول إنّ الإيمان هو الأساس الذي تقوم عليه

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص: ٤٢٨.

(٢) غرر الحكم، ح٧٧٦١.

الحضارة، لما يحدثه من آثار في النفوس، إضافة إلى أنّ حضارة بلا هدف هي حضارة بلا مستقبل، فإذا كانت هنالك عوامل التقدم المادية متوفرة، لكن المجتمع لم يكن يهتم بغير حاجاته اليوميّة، فهو لن يرسم غاية لحياته، ومن ثمّ فهو يعيش كالحيوانات، لكن بأدوات متقدّمة، مجرد أكل وشرب ونوم وراحة وجنس وتمتع، ويعيش في دائرة مغلقة تدور حول المطبخ والمخدع والمعمل.

إنّ الإيمان يشكل «الوعي الجمعي» للمجتمع الذي تقوم عليه الحضارة، وحتّى الحضارة القائمة ليست مادية بحتة في كلّ أبعادها ذلك أنّ لكلّ حضارة نظراتها المعرفية المحددة لخصائصها الجوهرية، وهي التي تمنحها هويتها الثقافية والاجتماعية، ومقدار التزام المجتمع بالأخلاق هو الذي يحدد تقدم ذلك المجتمع، من هنا نعتقد أنّ الحضارة القائمة تدور حول تعاليم السّيّد المسيح عليه السلام والتي منها الصدق والإخلاص، والأمانة.

وعلى كلّ حال فإنّ بناء الحضارة يبدأ من الإيمان، أي من إصلاح القلب، واستخدام العقل، وحسن العمل، لأنّ «**الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالقَلْبِ، وَ إِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَ عَمَلٌ بِالأَرْكَانِ**»[1] كما يقول

(١) نهج البلاغة، الحكمة رقم ٢٢٣.

أمير المؤمنين عليه السلام.

إنّ تكامل الإيمان والعلم والعمل يتيح للفرد أن يتطوّر، ويحقّق العمران في الأرض، ويجعل الإنسان يتعاون مع أخيه في هذا المجال، مع الابتعاد عن الفساد والإفساد، وتحقيق الهدف من خلق الله للبشر، وهو أن يتكامل وأن ينفع نفسه وغيره، ويتطلع إلى حياة أخرى في عالم الآخرة، فالإيمان بالله تعالى وتوحيده والإلتزام بالقيم والمثل التي أمر الله بها هو المبدأ الذي تنبثق عنه الأسس كافة التي تميّز هذا المجتمع عن بقية المجتمعات، ومن ثمّ فهي تصنع الحضارة، ولذلك نجد أنّ المجتمعات السابقة إنّما تقدّمت بحجم التزامها بالمثل والقيم.

إضافة إلى أنّ الإيمان يمنح الإنسان الأمل، والقوة النفسية، ويدفعه للالتزام بالأخلاق الحميدة، كما أنّ الدين وبشكل دائم يحث الناس على العمل والاجتهاد والتعاون والتكاتف والتنظيم وحسن الإدارة، والحقيقة إنّ جميع هذه الأمور التي أكد عليها الإسلام هي من عوامل الرقي والتقدم الحضاري.

ومع الأسف فإنّنا نجد البعض يروّج لفكرة خاطئة، وهي أنّ الدين عائقٌ أمام قيام الحضارة وتقدّمها، لدرجة أنّ البعض يدعو

إلى تعطيل الدين من أجل قيام الحضارة، متناسياً ما للدين من دور كبير وأساسي في قيام الحضارات عبر التاريخ، حتّى أنّ الكثير من علماء الاجتماع المنصفين الذين درسوا وبشكل معمق عوامل قيام المجتمعات أقرّوا للدين بفضله ودوره الكبير في تحفيز الإنسان على العمل، والتحرك نحو البناء الحضاري والتقدّم.

الحضارة تبدأ من فكرة

ربما يستنكر الناس للوهلة الأولى إذا قيل لهم إنّ المنجزات العظيمة تأتي من أفكار بسيطة، غير أنّ نظرة فاحصة إلى الكون تكشف لنا أنّ النخلة تأتي من نواة يابسة، والنبتة من بذرة صغيرة، والجبل من ذرّات التراب، والبحر من قطرات الماء، والإنسان من نطفة.

وبهذا المقياس فإنّ جميع المنجزات الكبيرة في التاريخ إنّما هي نتائج أفكار كانت في ولادتها عادية، ولعلّها طُرحت في جلسات متواضعة، وعلى لسان رجل متواضع.

إلّا أنّ هذه الأفكار الصغيرة في حجمها، المتواضعة في ولادتها، قد تكون منشأً لموقف عظيم وحضارة راقية تمتد قروناً متطاولة في التاريخ، ذلك أنّ «**الفِكْرَةُ تُورِثُ نُوراً**»[1]، و«**تَهْدِي إِلَى الرَّشَادِ**»[2] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) تحف العقول، النص، ص: ٨٩.

(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص: ٣٢

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

لكن من يريد تحويل البذرة إلى شجرة باسقة، والقطرة إلى بحر، والفكرة إلى حضارة بحاجة إلى أمرين:

- **الأوّل**: أن يختار البذرة الصالحة، حتّى لا تفسد في الأرض.
- **الثاني**: أن يتعهّد هذه البذرة، ويسقيها ويشذّبها ويرعاها حتّى تنمو وتكبر وتصبح شجرة باسقة مثمرة.

فكما أنّ البذرة بحاجة إلى رعاية مستمرة، كذلك الأفكار التي تنجز مواقف عظيمة لا بدّ أن تكون سليمة، فبعض الأفكار تولد ميّتة، وبعض المقترحات تأتي عرجاء، وبعضها الآخر لا ينمو أبداً، إذا لم يوجد أحد يعززها أو يقوّيها.

واكتشاف الفكرة الصالحة بحاجة إلى عقل بصير ليميّزها عن غيرها، ولكي يفرّق بين الفكرة السليمة التي تحمل قابلية النمو والتطوّر، وبين الأخرى الفاسدة.

وهذا لا يعني بالطبع احتقار الأفكار، فذلك مرفوض، لأنّ

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٤-٠٠, ٢٥.

الأفكار لا تأتي مكتوبة بماء من الذهب، بل تولد ولادة طبيعيّة، كما أنّ العظماء يولدون صغاراً، وأحياناً من أبوين أُميّين يعملان في الزراعة.

وربّ فكرة صالحة لكنّها لا تنمو في مكان، بينما تنمو في مكان آخر، إذا وجدت تربتها الصالحة هناك، ووجدت من يرعاها.

إذن لا تحتقروا الأفكار الصغيرة، لأنّها ربّما تتحوّل إلى منجزات كبيرة، إذ إنّ الأفكار تصنع الإنسان، والإنسان يصنع الحضارة..

وهكذا فإنّ الأفكار هي أمُّ الحضارات.

والأمّة الناجحة هي التي تهتّم بالأفكار، وبالمفكّرين.

تكوين الأمّة

حالة متقدمة في النشاط الإنساني

بالرغم من أنّ الإنسان يولد وحده، ويموت وحده، ويُبعث يوم القيامة وحده، ويعيش في الحياة وهو يريد كلّ شيء لوحده، غير أنّه لا يستطيع أن يعيش وحده، فهو محتاج إلى الآخرين لا محالة.

فحتّى الملوك يحتاجون إلى الفلاح الذي يزرع لهم حديقتهم، ويحتاجون إلى الطبّاخ الذي يصنع لهم طعامهم، ويحتاجون إلى الكنّاس الذي ينظف لهم غرفهم، ويحتاجون إلى الخياط الذي يخيط لهم ثيابهم وهكذا في كلّ شؤون حياتهم.

وكما تقول إحدى الإحصائيات فإن الإنسان العادي يحتاج إلى ما لا يقل عن مليون شخص غيره، لكي يستطيع أن يعيش بشكل طبيعي.

فلكي يحصل على الخبز وحده فهو يحتاج إلى الفلاحين الذين

يزرعون له القمح، والعمال الذين يحملونه إلى المصنع، وإلى الذين يشتغلون في طحنه، والذين يوزعونه على المخابز، والذين يخبزونه، ومن يساهم في صناعة المخبز، ومن يعمل في حمل المياه وهكذا.

وإذا أخذت قلماً وورقة، وأخذت تسجل كم من الأيدي تشابكت حتّى هيأت لك قرص الخبز هذا فستجد أنّه يتجاوز المليون.

وإذا كان الإنسان بحاجة إلى أخيه الإنسان -أحبّ ذلك أم كره- فإنّ عليه أن ينبذ الأنانية، فلا يعتبر نفسه محوراً للكون، ولا يقيس كلّ الأمور بمقياس واحد هو مقدار قربها وبعدها عن مصلحته، وبذلك يستطيع أن يكوّن معه مجموعة، ويطور ذلك فيما بعد إلى تشكيل أمّة، وهو قمة ما يمكن أن يشكله الإنسان مع إخوته في الإنسانيّة.

إنّ الأمّة تعني الجماعة التي تعمل لهدف محدد، وتتعاون فيما بينها، وهذا يعني أن تشكيل الأمّة بحاجة إلى ثلاثة أمور:

- **الأوّل**: وجود جماعة.
- **الثاني**: أن تعمل تلك الجماعة وتشتغل.
- **الثالث**: أن يكون عملها في اتجاه هدف معين.

ولأنّ الإنسان يولد أنانياً بطبعه، فإنّ سعيه إلى تشكيل مجموعة تعمل لهدف محدد -أي تشكيل الأمّة- يعتبر نشاطاً متقدماً في حياة الإنسان.

وبالرغم من أنّ الله سبحانه وتعالى لا يريد للناس أن يصبحوا أمّة واحدة، بل يريدهم مجموعة من الأمّم حيث يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾[١]، إلاّ أنّ الله تعالى أراد للمؤمنين أن يكوّنوا أمّة واحدة متماسكة من أمم هذه الأرض، يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[٢].

ثمّ إنّ المطلوب لبقاء الأمّة، بالإضافة إلى شروط تكوّنها، أن تلتزم بما يلي:

- **أوّلاً**: أن تلتزم بالأخلاق في علاقاتها الداخلية، ومنها الالتزام بأداء حقوق الضعفاء، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ، غَيْرَ مُتَعْتَعٍ**»[٣].

(١) سورة هود، الآية ١١٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٩٢.
(٣) بحار الأنوار، ج٣٣، ص٦٠٨.

- **ثانياً**: أن يتنازل الأفراد عن بعض مصالحهم الشخصية لمصلحة المجموع، فلا يمكن أن تبقى أمّة حيّة من دون أن يتغلب أفرادها على أهوائهم، وعلى رغباتهم الشخصية، مثل جمع المال على حساب الفقراء، والتمتّع بالملذات على حساب المعدمين.
- **ثالثاً**: أن تناضل الأمّة للحفاظ على حرّيّة أفرادها كأفراد، وللحفاظ على استقلال الأمّة كمجموعة، وكما قيل فإنّ للأمم آجالاً، وأجل كلّ أمّة يوم تفقد حرّيتها، أو تسقط في مهاوي الأنانيّة، أو الظلم، أو يسودها الاستبداد.

ولادة قيصرية أم ولادة طبيعية؟[1]

من مصلحة الحضارة القائمة أن لا تعيق ولادة حضارة أخرى، حتى ولو كانت مصالحها تتناقض آنياً مع تلك الحضارة.

فكما أنّ من مصلحة الأُم ألّا تُجهض جنينها، حتى وإن كانت تخشى منه أو لا ترغب فيه، أو لم تكن قد قررت هي وجوده من قبل، كذلك فإنّه ليس من مصلحة أية حضارة أن تمتنع من أن تصبح بيئة لولادة حضارة أخرى.

إنّ ولادة الحضارات عملية معقدة بلا أدنى شك، ولكن من الثابت أنّ كلّ حضارة تُنتج -من حيث تريد أو لا تريد- حضارة أخرى أكثر منها شباباً وحيوية؛ تتغذى منها وهي جنين، وتحتاج إلى رعايتها وهي طفل، ثم تنافسها وهي شابة، ثم تموت الأُم وتستمر البنت في الحياة وقد أخذت بعض ملامح الأُم وبعض شخصيّتها المستقلة.

(١) من كتاب: لئلا يكون صدام حضارات، للمؤلف.

ومن الثابت أيضاً أنّ كلّ حضارة جديدة لها الكثير من الروابط مع الحضارة السابقة لها، لأنّها أساساً تُولد نتيجة اللقاح معها، إلّا أنّها في ذات الوقت تتناقض معها لأنّ المطلوب أن تنفصل عنها فيما بعد.

وإذا أخذنا الحضارة القائمة بعين الاعتبار، واعتبرنا مركز الثقل فيها النمو الاقتصادي، فإنّنا سنجد من علامات الشيخوخة فيها بمقدار ما نجد من علامات الشباب لدى شعوب أخرى.

فإذا كانت القرون السابقة -عدا القرن التاسع عشر- هي قرون الحضارة الإسلامية، فإنّنا نجد أنّ القرن التاسع عشر كان قرن الحضارة الأوروبية، حيث سيطرت فيه أوروبا على العالم بعد أن أخذت الكثير من الحضارة الإسلامية، وقد لعبت الأندلس دور الوسيط في ذلك، ولم يُطِلَّ القرن العشرون إلّا وسيطرت الولايات المتحدة الأمريكية بحضارتها التي استمدتها من الحضارة الأوروبية، ولكنها استقلت عنها؛ الأمر الذي لا نزال معاصرين له.

إلّا أنّ هنالك شواهد تدل على أنّ حضارة أخرى أخذت بالتكون في منطقة المحيط الهادي، حيث يتنبأ البعض بانتقال مركز

الثقل العالمي إلى هناك.

وهذا يعني أنّ الحضارة ليست واقفة في مكان بل إنّها تمشي من منطقة لأخرى فقد كانت بيئتها في الشرق، ثم انتقلت إلى الغرب، وها هي تعود إلى الشرق من جديد.

يقول الخبراء إنّ الدول المطلة على شواطئ المحيط الهادي والتي يبلغ مجموع سكانها ما يقارب المليارين من النفوس، هذه الدول ضخمة جغرافياً، وعظيمة استراتيجياً، وفعالة اقتصادياً، وقد أدهشت العالم بإنجازاتها الحديثة، وهي لذلك مرشحة لكي تكون حاضنة للحضارة القادمة.

إنّ هذا الواقع لا ينفع معه أن يكون رد الفعل هو محاولة منع هذه الدول من إحراز أي تقدّم عبر الامتناع عن التعامل معها، تحسباً لقيام حضارة أخرى في تلك المنطقة.

ولادة طبيعية

إنّ الحضارة تولد كما يُولد الطفل بالرغم من صرخات الأُم وبكائها وآلامها، ولكي تأتي عملية ولادة الحضارة الجديدة طبيعية، بدلاً من أن تأتي قيصرية، فلابدّ من اعتماد الخطوات

التالية:

- **أوّلاً**: نزع فتيل الحرب عالمياً، لكي لا تأتي الحضارة الجديدة وهي محمّلة بذكريات مؤلمة ومتحفّزة للانتقام، ولابدّ أن يكون نزع الفتيل عالمياً وليس محلياً.
- **ثانياً**: التعاون مع الشعوب التي تولد حضارتها الآن، بحيث لا يؤدي الأمر إلى الانفصال بين الحضارة الحالية والجديدة حتى تولد الحضارة وهي متعاونة، وليست معادية.
- **ثالثاً**: دفع الدول العملاقة اقتصادياً إلى تحمل دور إنساني في دول الجنوب الفقيرة، حتى يكون القرن الواحد والعشرون قرن «تقدّم الأرض» بكلّ ما فيها من دول، وليس قرن «التقدّم في الأرض» لدولة على حساب أخرى.
- **رابعاً**: الامتناع عن التدخل المباشر وغير المباشر ضد حضارات الآخرين خاصة تلك الدول التي أصبحت تتقدّم على أوروبا أو على أمريكا اقتصادياً.

فبدلاً من أن نحسد شعوب الدول الأخرى على نشاطها الاقتصادي وتقدمها الصناعي، فإنّه لابدّ أن ننافسها في ذلك؛ فإذا كان اليابانيون نشيطين مثلاً والأمريكيون كسالى، فليس الحل هو

أن نكسر شوكة الناشط لنجعله متكاسلاً، بل الحل هو أن نجعل المتكاسل نشطاً، وإذا رفض ذلك فليتحمل نتاج ما اختاره لنفسه.

إنّ التخلص من تركة العقلية البريطانية التي كانت تقوم على تمزيق المنافس أو فرض المشاكل عليه لمنعه من إحراز أي تقدّم لهو أمر ضروري جداً في هذه المرحلة، لأنّ التنافس الشريف هو الذي يبني الحضارات، أمّا التآمر على المنافس فهو يضرّ بالنفس كما يضرّ بالطرف الآخر، على أنّه قد لا يجدي نفعاً مع شعب قرر أن ينجح.

ختاماً أقول: دعونا نتنافس في صنع الحضارات، وليس في إجهاض أجنتها.

التطوّر التاريخي للأمم

هل تطوّر التاريخ بالنسبة إلى الأمّم والشعوب هو تطور اندفاعي عشوائي، أم أنّه تطور له مقدماته وأصوله وجذوره؟

قد يظنّ البعض أنّ تطوّر الشعوب إنّما هو قائم على تلك الأخبار التي يقرأها في الصحف والمجلات، أي أنه قائم على مفاجآت، وقفزات، لا ارتباط لها بالمقدمات والجذور، إلّا أنّ الحقيقة ليست كذلك، فالتطوّر الحقيقي لأيّة أمّة من الأمّم لا يعرف الاندفاعات العشوائية، كما لا يعرف الانقطاعات المفاجئة، فلكل شيء مقدماته وأصوله وجذوره، فكما أنّ الطفل ينمو نمواً يومياً، إلى أن يصبح مكتمل النموّ في فترة شبابه، ولا يقفز قفزة واحدة إلى مرحلة الشباب، سواءً في الارتفاع أو في الوزن أو في الإدراك أو ما شابه ذلك، بالرغم من أنّ الذي يغيب عن الطفل وهو صغير، ثمّ يحضر بعد مرور عشر سنوات مثلاً فإنّه يُفاجأ بأنّ ذلك الطفل الذي انطبعت صورته في ذهنه وهو يحبو على الأرض، قد أصبح كبيراً عاقلاً مفكراً فيُظهر اندهاشه من ذلك،

ولربما يقول إنّك قفزت قفزة كبيرة خلال هذه المدة، لكن الطفل لم يقفز، وإنّما نما يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، كذلك الأمر فيما يتربط بنمّو المجتمعات، فهي لا تقفز قفزة واحدة، وإنّما تتطور يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد آخر.

ومن هنا فلو افترضنا أنّ شخصاً ما من الذين ماتوا بُعيد توقف الحرب العالمية الثانية، وقد شاهد الدمار والخراب، ثمّ عاد إلى الحياة فلربما يقول إنّ تطوّر الشعب الألماني هو تطوّر عشوائي أو اندفاعي، لكنّه في الحقيقة ليس كذلك، بل الذي حدث هو أن الألمان تطوروا يوماً بعد يوم، بينما هو الذي غاب عن هذا الشعب خلال هذه الفترة.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الشعب الياباني مثلاً، فقد خاض نضالاً يومياً حتّى تطور.

وهذا يقودنا إلى نقطة مهمة جداً وهي: إنّ القول الشائع بأنّنا إذا لم نستطع أن نصنع اليوم حضارة وبشكل متكامل، فلننسحب من الساحة ولنجلس في بيوتنا، أمر غير صحيح، فليس مطلوباً أن نحقّق هذا الحلم مرّة واحدة، وإنّما المطلوب هو العمل المتواصل في طريق البناء الحضاري.

وإذا كان لكل شيء أصوله، فللتطور أصوله التي لا يشذّ عنها، ولابدّ من معرفتها واستخدامها.

إنّنا اليوم نعاصر تطوّراً في الأمّم والتاريخ والبشرية لم يكتمل بعد، صحيح أنّنا أحياناً لا نرى سوى قمة جبل الجليد الطافية، إلّا أنّ التحول إنّما هو في الجذور التي لا تُرى بالعين.

ولذلك فإنّ أفكارنا قد تتأثّر بالأحداث الجارية والتطورات المتسارعة، بحيث إنّ سرعة التطور قد لا تسمح للباحث بحرية التفكير بعيداً عن جلبة الأحداث، ولا تعطيه الفرصة للتأني في الدراسة والتفكير، فالدراسة الحقيقيّة للتطوّر تتطلّب تفكيراً هادئاً ومعمقاً يشمل الجذور البعيدة، لمعرفة الأسباب وليس فقط لمعرفة النتائج.

و أعتقد بأن الوقت لم يحن بعد لإصدار الأحكام النهائية في التطورات التي ما تزال تتلاحق هنا وهناك، ومعرفة تداعياتها على الأوضاع الدولية، لهذا فإنّ من غير العلمي إطلاق أحكام نهائية، سواءً فيما يرتبط بانتصار هذا الطرف أو ذاك على الآخر، أو هزيمته بسبب طابع السيولة الذي يميّز العلاقات المعاصرة.

ومن هنا فلا بدّ من تجاوز الانطباعات السريعة التي تخلّفها

سرعة التطوّرات، وسبر أغوارها في إطار تاريخي أوسع، ومن ثمّ تدبر آثارها على منطقتنا وبلادنا وشعوبنا، إنّنا نعرف أنّ أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي أُصيبتا بانهيار شبه كامل، إلّا أنّ القلّة منّا مَن يبحث عن الأسباب والجذور لهذا الانهيار الذي شهدناه.

وربّما أنّ البعض يقول إنّ الحرب الباردة لم تنتهِ بدون منتصر ومهزوم، فالمنتصر كان قطب الولايات المتحدة الأمريكية، والقطب المهزوم كان الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، غير أنّ النظرة العميقة تقول: إنّ الحرب الباردة بين الدولتين أدّت إلى إرهاق متبادل لهما، تمثل في تحمل أعباء عسكرية استراتيجية على المستوى الكوني إلى الدخول في سباقٍ للتسلح لا نهاية له، ومن ثمّ فهو أدى إلى اختناقات حادة في الاتحاد السوفيتي، وإلى الازدياد في عجز الميزان التجاري الأمريكي، وإلى قيام قطبين جديدين هما القطب الياباني والقطب الصيني اللذان لم يدخلا في الحرب الباردة إلّا بحدود معينة، فبقيت قدراتهما غير مصروفة في أيام هذه الحرب.

ولذلك فمن السابق لأوانه أن نقول إنّ القطب الأمريكي قد أحرز انتصاراً ساحقاً على القطب السوفيتي، في نهاية هذه الحرب،

فلربما نكتشف بعد فترة من الزمن أنّ الخسارة كانت متبادلة، وأنّ الحرب أدت إلى ظهور أقطاب أخرى، ومن ثمّ انتقال الحضارة من منطقة معينة إلى منطقة أخرى.

وهذا يعني أنّ اللهاث وراء المنتصر في الظاهر قد يكون لهاثاً وراء مهزوم واقعي، وإن كانت جلبة الانتصار وإكليل التفوّق وهالة النجاح لا تزال تحوم حول رأسه.

دورات الحضارات [1]

إنّ لقيام الحضارات وسقوطها ارتباطاً بحالات الأفراد والأُمم، حيث إنّ وجود الثقافة السليمة، والإرادة الصلبة، والالتزام بالمثل والقيم، كلّها شروط لقيام الحضارة، أمّا حينما تستكين الأمّة إلى الشهوات والرغبات، فإنّها تسلّم حضارتها لا محالة، بيد الموت.

وربّما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّنَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدَاً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**﴾[2].

إنّ «الغيّ» هو نتيجة اتباع الشهوات، حسب القرآن الكريم، وهو سبب رئيسي لسقوط الحضارة.

---

(١) من كتاب: البدايات والنهايات في دورات الحياة، للمؤلف.

(٢) سورة مريم، الآيات ٥٦ – ٥٩.

وهكذا فإنّ كلّ حضارة تولد ضعيفة، ثمّ تشبُّ وتنضج، ثمّ تبدأ بالركود والاضمحلال، ثمّ السقوط والموت، لكي تتلوها حضارة أخرى، في رقعة أخرى من العالم، وقد تتلمذ الحضارة الجديدة على أيدي بناة الحضارة التي سبقتها، ولكنّها تتجاوزهم، بعد أن تكون الأخيرة قد شاخت أو اندثرت.

من هنا يظهر أنّ مركز الحضارة -ومن ثمّ مركز القوّة والتفوق- في العالم لا يدوم في رقعة معينة من الجغرافيا، وإنّما يتحرك من مكان لآخر تبعاً لعوامل شتّى، ولذلك نجد أنّ حضارة المسلمين انتقلت من منطقة الشرق الأوسط إلى الأندلس في دولة الموحدين، ثمّ انتقلت بعد ذلك إلى الأتراك في تركيا، ثمّ إنّ الحضارة الغربية ورثت الحضارة الإسلامية العربية، بعد أن اندثرت هذه الأخيرة.

وبالطبع فإنّه لا تخضع دورات الحضارات لفكرة الدورات الخارجية وحدها، بل إنّ كلّ حضارة تسير عبر دورة من خمسة أطوار هي: البداية، والعمران، والهرم، والتجديد أو الموت. ولقد كانت العوامل المؤدية إلى سقوط الحضارات تتمثل بالاستكانة، وفقدان الإرادة، وانعدام الأخلاق، والركون إلى ذكريات العظمة، وعدم تقبل الاعتراف بالأخطاء، ومن ثمّ عدم التجديد،

الأمر الذي يؤدي بالطبع إلى السقوط.

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية خير مثال على ذلك، حيث إنّ دورتها الداخلية هي التي أدّت بها إلى السقوط، وذلك بانتقال أهلها من أخلاق التقشف إلى أخلاق الترف، بعد انحسار الخصال التي قامت حضارتهم على أساسها.

وبالتعمق في الآليات التي جعلت من المتعذّر إقناع الرومانيّين بالتخلي عن حياة الترف والفساد، ولجوء القياصرة والأباطرة في العهد الروماني المتأخر، إلى طباعة عملات رديئة، لإرضاء مطالب الرومانيين المترفة، وخصوصاً قادتهم العسكريين، ممّا أدى إلى التضخم الاقتصادي، وبالتالي فساد الإدارة والجيش، وهزيمة الإمبراطورية في النهاية، نكتشف أنّ علّة سقوط هذه الحضارة هي علّة سقوط كلّ الحضارات في التاريخ، وهي انتهاؤها إلى مرحلة السقوط الأخلاقي في دورتها.

وتلك الدورة الداخلية هي التي أدّت، فيما بعد، إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، بعد أن نخر في عظامها الفساد والترف؛ وهي ذاتها التي أدّت إلى سقوط ما عُرف بالاتحاد السوفياتي.

وهي نفسها التي يمكن أن تؤدي إلى سقوط الحضارة الغربية

المعاصرة، وأية حضارة أخرى في المستقبل.

وهكذا فإنّ قيام حضارة الأُمم أو سقوطها، يتمُّ ضمن دورة كاملة، وتكون بداية الحضارة من فرد، كما أنّ بداية الإنسان من نطفة. فالحضارات تقوم على سنّة الله المرتكزة على أنّ كلّ شيء كبير يبدأ من شيء صغير، فالإنسان يبدأ من نطفة، والمطر من قطرة، والجبل من ذرّة، والحضارة من فرد...

فالأُمّة الناهضة تبدأ بفرد ناهض، يتحول الفرد إلى محور للنشاط فتتكوّن الجماعة، وتصبح تلك الجماعة قوية بالرجال والأموال فتكوّن أُمّة، وبامتلاك القوّة تصبح الأمّة منيعة الجانب، فإذا امتلكت تطلعات عالية فهي حينئذٍ تصنع حضارتها الخاصّة، وربما تتوسع لتفتح آفاقاً جديدة في مناطق أخرى.

ولا شكّ أنّ وجود الرؤية السليمة، والثقافة الخلاّقة شرط ضروري، وإلّا فكم من فرد لا يتحول إلى جماعة، وكم من جماعة لا تستطيع أن تكوّن من نفسها أمّة، وكم من أمّة لا تستطيع أن تبني حضارة، لأنّها لا تمتلك الرؤية السليمة والثقافة الخلاّقة.

وممّا لا شكّ فيه أيضاً أنّ الأمّة متى ما بدأت بالتنازع والانحلال فهي سوف تتفرق جماعات، ثمّ تصبح أفراداً، ثمّ ينتهي دورها وتسقط؛ وسقوط الأمّم إنّما هو بسقوط حضارتها، كما أنّ قيام الأمّم

إنّما هو بقيام حضارتها أيضاً. وإلّا فإنّ الأفراد يتناسلون، ومن ثمّ فهم موجودون، كبقايا سلالات سابقة ولكن من دون حضارة.

وإلى قيام الأمّم وسقوطها يشير ربّنا عزّوجلّ في قوله: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾**[١].

إنّ الأمّة تكون منيعة حينما تكون متماسكة، وتسلك الصراط القويم، ولكنّها حينما تبدأ بارتكاب الذنوب -بمختلف أنواعها- كذنب الفساد والانحلال والظلم والعدوان، حينذاك يدبّ الخراب في جسم الأمّة، وتسلك بها سبيل السقوط، وعندئذٍ ينشئ الله من بعده قرناً آخرين، وحضارة أخرى.

ولكي لا تكون هذه الحقيقة غائبة عنّا يذكّرنا ربّنا جلّ وعلا بقوله: **﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُونَ﴾**[٢].

(١) سورة الأنعام، الآية ٦.

(٢) سورة الروم، الآيات ٩ - ١٠.

سقوط الحضارات

هل يمكن أن تسقط الحضارة وتنتهي؟

الجواب: بالتأكيد نعم..

فكما أنّ الإنسان يمكن أن يموت، كذلك حضارته يمكن أن تسقط وتزول، لأنّ الحضارة هي نتاج عمل الإنسان ونشاطه، وتسقط الحضارات بسقوط أصحابها، وانحرافهم عن المسير الحضاري، وفي الحقيقة فإنّ هذا السقوط لا يكون اعتباطيّاً، وإنّما نتيجة مجموعة من الأسباب والمسببات، ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾[1].

لكن سقوط الحضارة لا يعني بالضرورة زوال الأمّة القائمة عليها وفناء أفرادها، بل السقوط الحضاري يعني الانهيار الداخلي للمجتمع، وانتهاء قوّة الأمّة، وسقوط عزّتها، وتقدّم الأمّم الأخرى عليها ومن ثمّ حاجتها لتلك الأمّم التي تقدّمت عليها.

(١) سورة الكهف، الآية ٥٩.

إنّ مفهوم الدولة يختلف عن مفهوم الحضارة، فقد تسقط الحضارة بينما الدولة الظاهريّة مازالت قائمة؛ فكثيراً ما سقطت الحضارات أخلاقيّاً إلّا أنّها بقيت قائمة مدة من الزمان كهيكل جميل في الخارج وفارغ من الداخل، وسرعان ما ينهار الهيكل أيضاً.

فالحضارة كالشجرة التي نخرها السوس من الداخل، ولكنها بقيت قائمة، فمن الخارج تبدو كأنّها شجرة باسقة ولكنها من الداخل خاوية، ومع أقرب عاصفة أو هزة ستسقط الشجرة وتنهار، وكذلك الحضارة.

لقد كان قوم النبي لوط عليه السلام يظنّون أنّهم خالدون، وأنّ حضارتهم باقية رغم إسرافهم في الانحلال الأخلاقي، ولقد نصحهم نبيّهم ولكنّهم أعرضوا عنه، ومن ثمّ فقد بدأ الانهيار الحقيقي الداخلي لهم قبل الانهيار الظاهري الذي تمثّل بنزول العذاب، فالمجتمع الذي تخلى أهله عن الأخلاق والقيم هو مجتمع ساقط، وإن كان في الخارج يتباهى بالقوّة والبقاء، يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم حينما يتحدث عن نزول العذاب على قوم لوط: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً**

من سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

وكمثال آخر يذكر لنا القرآن الكريم الصورة الحقيقة للمجتمع الذي يعيش النفاق والكفر، وكيف أنّه وإن كان متماسكاً في الظاهر إلّا أنّه في الحقيقة مجتمع منهار؛ فالمنافقون في زمن النبيّ ﷺ تحالفوا مع اليهود، وشجّعوهم على محاربة النبيّ ﷺ ووعدوهم بالمقاتلة معهم إلّا أنّهم أخلفوا وعدهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

«يبيّن لنا القرآن الصورة الحقيقة المعبرة عن طبيعة العلاقة الداخلية في جبهة الباطل، فمع أنّها قد تتراءى للمراقب الخارجي بأنّها جبهة متماسكة، إلّا أنّها تفتقر لأهم عوامل الوحدة والتماسك وهي وحدة القلوب، والسبب هو اتباعهم الباطل والأهواء والمصالح، ونبذهم الحق المتمثل في الرسالة وهداها.

(١) سورة هود، الآيات ٨٢-٨٣.

(٢) سورة الحشر، الآية١١.

فإنّ الإنسان لا يجد دوافع حقيقية للتضحية والتفاني من أجله، ولهذا فإن جبهة الباطل تضعف وتتمزق بمجرد تعرضها للتحديات الحقيقية.. وهكذا هي العلاقة بين أهل الباطل (أفراداً، وجماعات، ودولاً) يتناصرون مادامت ثمة مصلحة مشتركة، أمّا إذا انعدمت أو وُجدت في مكان وموقف آخر فإنّهم يميلون حيثما تميل»[1].

ثمّ يفضح القرآن واقعهم الخاوي، كي لا ننخدع بمظهرهم الخارجي، فجبهة الباطل وإن بدت في ظاهرها متماسكة إلّا أنّها في الحقيقة جبهة مهترئة، لأنّها قائمة على رفض الحق والتمسك بالمصالح الذاتية الضيقة التي تسبب التفرق والصراع بين أبناء الجبهة أو الدولة الواحدة، ﴿**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لّا يَعْقِلُونَ**﴾[2].

فكم من حضارة كانت تمتلك بريقاً خارجيّاً وعظمة ظاهرية وظنّ الناس أنّها هي الحضارة السائدة إلّا أنّها -وبعد فترة وجيزة- أظهرت حقيقتها الزائفة، واختفى بريقها وسقطت خارجيّاً بعد سقوطها الداخليّ، وهذا ماحدث في الماضي لحضارات كثيرة،

(١) تفسير من هدى القرآن، المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي، ج١٠، ص ٣٧٨.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٤.

وهو في حالة الحدوث الآن، وسيظهر السقوط النهائي في فترة قادمة من الزمن.

* * *

وفي بعض الحالات لا تختفي الحضارة نهائياً وإنّما تقوم حضارة أخرى على أنقاضها فتكمّل مسيرتها، ولقد شهد التاريخ بأنّ هنالك من الأمّم من بنى حضارة وأقام إمبراطورية حكمت لفترات طويلة، إلّا أنّه حينما ضعفت الأمّة واستكانت انتهى تأثيرها المباشر في مختلف جوانب الحياة سواء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فابتلعتها حضارات الأمّم الأخرى، وأذابتها في نفسها، وأصبحت جزءاً من غيرها، وأُنشئت على أنقاض كيانها حضارات جديدة، تسلّمت دفة القيادة من خلال تجميعها لمصادر القوّة.

إنّ سنّة الله تعالى جرت أن يجازي البشر بحسب أعمالهم، فلكلّ عمل جذروه ونتائجه، ولذلك فإنّ الله إذا أنعم على قوم نعمة لا يغيّر نعمته عليهم، إلّا حينما يتغيرون إلى السوء، ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[١].

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٣.

والعكس صحيح أيضاً، فربنّا عزّ وجلّ يمنح العافية والنعماء والرخاء لأمّة من الأمّم، إذا غيّرت نظامها وروحيتها وأخلاقها وعملها نحو الأفضل، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1]

فإذا تمردت أمّة من الأمّم على سنن الله عزّ وجلّ، وعاثت في الأرض فساداً، وتجبّرت وطغت فإنّ النتيجة هي سقوطها، ويحلّ بها عذاب الله تعالى، وتمزقها قوارع الأحداث، يقول عزّ وجلّ: ﴿كَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[2]

وهكذا فإنّ القضية تبدأ من فساد المعتقدات، ومن ثمّ فساد العلاقات بين أفراد الأمّة، من خلال ترك التعاون والتوادد، ويؤدي ذلك إلى التباعد والتباغض، وفساد النفوس بالتكبر والعجب والغرور، وهذا يؤدي إلى سقوط الحضارة.

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

(٢) سورة الطلاق، الآيات ٨-٩.

مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ﴾(١).

فالحضارات في البداية تسقط في القلوب، ثمّ تسقط في التعامل ما بين أفراد الأمّة، ومن ثمّ فإنّ نتاج أعمالهم يكون فاسداً، مثل شجرة تفسد جذورها في البداية، ثمّ يسري الفساد إلى الأغصان، ثمّ إلى الثمرات، وبعد ذلك تذبل وتسقط.

يقول ربّنا عزّ وجلّ : **﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ، فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**(٢).

وكما نرى فإنّ قارون وفرعون وهامان جاءهم نبيّ الله موسى عليه السلام بالبيّنات، فاستكبروا في الأرض، وكانوا أصحاب قوّة ومال وغلبة على بقية الأمّم، وكان لهم ملك عظيم لكنّهم ظنّوا أنّ عوامل بقاء حضارتهم هي في أشخاصهم، لا في أخلاقهم،

(١) سورة القصص، الآية ٥٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات ٣٨-٤٠.

فأذنبوا، وتكبروا، وظلموا، وأفسدوا، ولم يحتسبوا عقاب الله ﴿**فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ**﴾.

ألا نرى كيف أنّ الطغاة يسقطون على مدار التاريخ، ويتحوّلون إلى عبرة لغيرهم؟

ألا نرى كيف أنّ الظالمين من العرب بسبب تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سقطوا على أيدي المؤمنين، وذلوا بعد أن كانوا أعزاء، لأنّهم كفروا بنعم الله، وفسدوا وأفسدوا، فسنّة الله واحدة في الأمّم، لا تتبدل ولا تتغير.

والقرآن الكريم يحكي لنا بعضاً من قصص الأمّم السابقة، ويذكر لنا كيف سقطت تلك الأمّم وبادت، وما ذلك إلّا من أجل استخلاص العبر وتعلّم الدروس.

عوامل سقوط الحضارات

الحضارات لابدّ أن تسقط في يوم من الأيام، لأنّ ذلك من سنن البارئ عزّوجلّ في الأشخاص، وفي المجتمعات، وفي الحضارات أيضاً.

صحيح أنّ النظريات التي تنظّر لسقوط الحضارات متعددة وكثيرة، إلّا أنّه لا توجد نظرية متكاملة مقبولة لدى الجميع تحدد العوامل التي تدفع الحضارات إلى السقوط والانهيار، فما يطرحه الغربيون نعتبره ناقصاً لأنّه يُغفل جوانب مهمة.

ولكن الجميع يتفق أنّ هنالك عوامل تؤدي إلى الانهيار الحضاري، ولذلك فالنظر إلى الماضي وما جرى على حضارات البشر يكشف لنا عوامل متعددة أدت إلى انهيار الحضارات السابقة، وقد تكون هذه العوامل أو بعضها متوفراً الآن في الحضارة القائمة، أو أنّ الله يُبدع عاملاً جديداً لانهيار هذه الحضارة، كما أنّ هنالك عوامل لموت الإنسان، إلّا أنّ الموت ليس بالضرورة مرتبط بهذه العوامل.

بل هنالك عوامل جديدة اخترعها الباري عزّوجلّ ويبدعها لموت الإنسان، فالإنسان لا بدّ أن يموت، سواء بالعوامل التي أدت إلى موت مَنْ سلف أو إبداع وسائل جديدة، كذلك الحضارات.

ومن الأمور التي يذكرها العلماء كعوامل لانهيار الحضارات ما يلي:

١ - انعدام العدالة:

- انعدام العدالة.
- وجود التفاوت في توزيع الثروات.
- عدم المشاركة السياسية من قِبل الجميع.
- انحصار السلطة في يد قلّة من الناس.
- المركزية في اتخاذ القرارات.

تلك هي أهم العوامل التي تؤدي إلى انفراط عقد المجتمعات، فهذه العوامل هي التي تعوق قدرة الأفراد على الاستجابة للمشكلات البيئية والاجتماعية والاقتصادية.

يقول ربّنا عزّوجلّ :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[1].

فعلى مستوى القرية أو على مستوى المدينة أو على مستوى الحضارة فإنّ من عوامل الانهيار هو انعدام العدل في المجتمع.

٢- التدهور البيئي:

ومن عوامل سقوط الحضارات أيضاً تدهور البيئة، فعندما يفوق استهلاك المجتمعات للموارد الطبيعية قدرة الأرض على تجديدها، فستكون النتيجة تدمير البيئة، فالقطع غير المسبوق للأشجار، وتلوّث المياه، وتدهور التربة، وفقدان التنوع الحيوي، كلّ ذلك مما يعجّل في انهيار الحضارات.

وأيضا من عوامل انهيار الحضارة تغيّر المناخ، فقد يترتب على تغيّر المناخ تداعيات خطيرة، مثل نقص المحاصيل الزراعية، وحدوث المجاعات، والتصحّر، فمثلاً حضارات أنسازي، وتيوناكو، والإمبراطورية الأكتية، وحضارة المايا، والإمبراطورية الرومانية، هذه الحضارات انهارت متزامنة مع تغيّرات مناخية مفاجئة، تمثّلت في موجات الجفاف.

(١) سورة الإسراء، الآية ١٦.

٣- العنف السياسي:

ومن عوامل سقوط الحضارات أيضاً العنف السياسي الذي يرافق عادة تزايد السكان، وانعدام العدالة، فكلما زاد عدد السكان، فاق المعروض من العمالة معدل الطلب عليها، وتراجعت أجور العمال، وبالتالي ازداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً، وهذا التفاوت في الطبقات، وسوء توزيع الثروات يؤدي إلى تفكك المجتمع، وظهور الاضطرابات السياسية.

٤- الصدمات الخارجية:

ومن عوامل سقوط الحضارة أيضاً الصدمات الخارجية، أي الحروب، والكوارث الطبيعية، والمجاعات، والأوبئة، فالإسبان مثلاً دمّروا إمبراطورية الآزتيك.. كما أنّ أغلب الحضارات التي كانت تعتمد على الزراعة زالت بسبب أوبئة فتاكة خارجية، وأحياناً تتعاقب الكوارث على الدولة وتؤدي إلى نهايتها.

٥- تعقيد المجتمع:

ومن عوامل سقوط الحضارات تعقيد المجتمع، فالمجتمعات قد تنهار تحت وطأة التعقيد، والتشابك، والبيروقراطية، فالمجتمعات

تزداد تعقيداً وتشعباً كلّما واجهت مشكلات جديدة، لكن مردود التطور والتعقيد يقل تدريجياً، ويقود البلاد إلى الانهيار.

٦- الحظ العاثر:

وهناك عامل آخر لسقوط الحضارات وهو ما يسميه البعض بالحظ العاثر، فتشير التحليلات الإحصائية إلى أنّ بعض الإمبراطوريات انهارت بشكل عشوائي، وقد يرجع ذلك إلى كثرة الحروب والصراعات التي خاضتها من أجل البقاء.

وقبل كلّ ذلك، وبعد كلّ ذلك، فإنّ إرادة الربّ في إعطاء الفرصة لجميع الناس، ومن ثمّ امتحانهم بذلك، وهذا من عوامل ظهور الحضارات وسقوطها.

هذه هي العوامل والتي ذكرها بعض العلماء أمثال: (ليوك كيمب) قد تُسهم منفردة أو مجتمعة في انهيار الحضارات وزوالها، بسبب عجز المجتمع عن مواجهة الضغوط المتزايدة.

إلّا أنّ هذه العوامل والأسباب هي بعض عوامل السقوط وليست كلّها، وسنشير بتفصيل أكثر في طيات هذا الكتاب إلى ذلك[1].

(١) راجع: معاول هدم الحضارات.

التنبّؤ بمصير الحضارات

هل يمكن، من خلال دراستنا لنهوض الحضارات السابقة وسقوطها، أن نتنبأ بمصير الحضارة القائمة في مجتمعاتنا الحديثة؟

وهل النظم الرأسمالية الصناعية التي حلّت محل الإمبراطوريات الزراعية، بعد القرن الثامن عشر، في طريقها إلى الاضمحلال والزوال؟

الجواب على ذلك: إنّ الإخفاق جزءٌ من النجاح، وكذلك الانهيار جزءٌ من النهوض، وسقوط الحضارات جزء من ظهورها، فربّما يكون الانهيار مرحلة طبيعية تمرّ بها الحضارة، مهما اختلف حجمها وتطورها -وإن كانت حضارتنا أكثر تطوراً- ولكن لا يعني ذلك أنّ المخاطر لا تحيط بهذه الحضارة، ولا تؤدّي إلى سقوطها، كما سقطت الحضارات السابقة، بل إنّ التطورات التكنولوجية المتلاحقة تفرض على هذه الحضارة تحديات ومخاطر غير مسبوقة، أي أنّه بمقدار ما أنّ الحضارة الحالية متفوقة على من

سبقها بمقدار ما فيها من عوامل الانهيار وأسباب التحدي.

في الحقيقة بإمكاننا أن نتنبّأ بمصير أيّ حضارة إذا درسنا عوامل قيام وسقوط الحضارات، وكذلك إذا استوعبنا الحضارات السابقة وحللنا التاريخ تحليلاً منطقياً بعيداً عن البهرجة والمبالغة.

حينما يعرض لنا القرآن الكريم قصص الأقوام السابقين ويبين لنا ذلك فإنّه يذكر لنا سبب سقوط كلّ حضارة، ذلك أنّ الأسباب قدّ تتكرر وإن كانت ضمن صور وقوالب مغايرة؛ فقوم شعيب أفسدوا في النظام الاقتصادي فانهار مجتمعهم، وقوم لوط أشاعوا الفاحشة فأتاهم العذاب، وهكذا..

ونحن حينما نتعمق في دارسة هذه الأمثلة وغيرها نستطيع أن نضع ضوابط نحكم من خلالها على المجتمعات الحالية، فالمجتمع الذي يعم فيه الفساد سيسقط لا محالة، والمجتمع الذي يرفض السنن الإلهية سينهار عاجلاً أم آجلاً.

وهنا ملاحظة مهمّة، وهي أنّ المجتمعات الكبرى لا تكون بمأمن من التفكك، والاعتقاد الخاطئ المنتشر هذه الأيام حول ذلك هو تصور مغلوط، ومحاولة لإقناع الناس بصمود هذه الحضارات رغم أخطائها الجسيمة بحجة قوّتها وكبر حجمها.

وإذا سقطت هذه الحضارة فتأثيراتها تكون أكثر من تأثير انهيار الحضارات السابقة، بسبب العولمة، وبسبب العوامل المشتركة في المجتمعات البشرية اليوم، فكلّما تفاقم التغيّر المناخي وازدادت المجتمعات تعقيداً وتشعباً، وتوسّع التفاوت الطبقي، وازداد التدهور في البيئة، فإنّ احتمالات الانهيار تكون أقرب إلى الحدوث، فكلّ هذه العوامل موجودة وتتفاقم في الوقت الراهن.

إنّ الخطورة تكمن في أنّ العالم اليوم بات أكثر ترابطاً وتشابكاً من أي وقت مضى، ففي الماضي كانت تداعيات انهيار الحضارات تنحسر في مناطق معيّنة، ويعود الناس من بعدها لأنشطتهم المعتادة، من الصيد والرعي والزراعة، وكان الكثيرون يتنفسون الصعداء بسبب تخلّصهم من الأنظمة الاستبدادية، وحتى حينما كانت تندلع الاضطرابات والفوضى في المجتمعات كانت الأسلحة المستخدمة بدائية، لا تتعدى السيوف والسهام، وربما البنادق، أمّا الآن فإنّ انهيار المجتمعات سيكون له تداعيات وخيمة، لأنّ الأسلحة المتاحة للدول، وحتى بعض المنظمات، غير عادية بل خطيرة جداً.

إنّ الحضارة تشبه المتسلق للجبال، فإذا كان قد صعد خطوة

فإنّ سقوطه سيكون سهلاً، ولن يُصاب بأذى، ولكن إذا صعد أكثر فإنّ تبعات السقوط أخطر، وربّما إذا وصل إلى ارتفاع محدد سيكون سقوطه مميتاً.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا هو ما وصلنا إليه في عالمنا اليوم، وتبعاته هي الانهيار الذي لا يمكن إصلاحه.

فمثلاً إذا وقعت حرب نوويّة فإنّ انهيار الحضارة يعني انتهاء وجود البشر، أو على أقل التقادير نعود إلى العصور الحجرية.

لقد سُئل أحدهم: ما هي الأسلحة التي ستستخدم في الحرب العالمية الثالثة؟

قال : لا أدري، لكنني أعرف أنّه في الحرب العالمية التي تقع وراءها لن يملك الناس شيئاً يتحاربون به إلّا الحجر والعصي.

وعلى كلّ حال فإذا أصبح البشر أكثر تعقلاً وإيماناً وعدالة، فلربّما نؤخّر انهيار هذه الحضارة، وإلّا فإنّ انهيارها أمر حتمي، لأنّ الذين يصنعون هذه الأسلحة ليسو أطفالاً يريدون اللعب بها، وإنّما يريدون استخدامها في يوم من الأيام، والحضارات في العادة تنهار حينما تتجاهل أصوات العقلاء الذين يدقّون نواقيس الخطر، فإذا لم تتعلم حضارتنا هذه من الماضي، فالجميع في سفينة واحدة إذا غرقت غرق كلّ من فيها.

السقوط انتحاراً

لا تسقط الأمّم إلّا بأيدي أبنائها ورجالها، وإن كان للعوامل الخارجية تأثيرٌ في هذا السقوط إلّا أنّ التأثير الأكبر هو للعوامل الداخلية، فتصرفات أبنائها هو ما يؤدي إلى سقوطها، ولذلك يمكن القول: إنّ الحضارات تسقط وتنتهي انتحاراً، ولا تموت بشكل طبيعي.

الأمّم تنتصر أو تنهزم، والحضارات تقوم أو تبيد كلّ ذلك بفعل العوامل الداخلية، وليست العوامل الخارجية إلّا مكمّلة للعوامل الداخلية، فمثلاً عندما تمتلك الحضارة قابلية النمو فهي تستفيد من نقاط قوّتها الداخلية، وتساعدها العوامل الخارجية، فتنمو وتزدهر، بينما الحضارة القابلة للسقوط تتجمع نقاط ضعفها الداخلية وتكون سبباً لهزيمتها كما نرى ذلك في الأفراد، فعندما يكون هنالك شخص يقبل بالذل فإنّه يكون ذليلاً، كذلك الأمّة التي تقبل بالذّل تكون ذليلةً، وهذا ما نشاهده في الأمّم التي تخضع للاستعمار والاحتلال ومن ثمّ تذّل وتُحتل.

غير أنّ انتحار الأمّم هو في الأغلب تدريجي وبطيء، ويأتي نتيجة التخلّي عن القيم الإنسانية والمُثُل العليا، ومن ثمّ السقوط في وادي الاستبداد والظلم والفساد، وانتحارها في ذلك يشبه الإنسان الذي أهمل صحته، فلربما مات بسبب إهماله لصحته إلّا أنّ هذا الموت لا يكون نتيجة لإهمال صغير، وإنّما عن طريق عدم الالتزام بقواعد الصحّة والسّلامة، واعتماد عادات سيّئة في التغذية والعمل والراحة وغير ذلك لفترة من الزمن.

يقول القرآن الكريم: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[1].

فالله تعالى لا يهلك الأمّم ظلماً وعدواناً، ما دامت هي صالحة في نفسها، ومصلحة لغيرها، وإنّما تهلكها أعمالها وتصرّفاتها، وسوء عاداتها وتقاليدها، فمن يدرس التاريخ ويدقق في أسباب سقوط الحضارات السابقة يلاحظ وبشكل جلي الدور الكبير لأبناء كلّ حضارة في سقوط حضارتهم، وبذلك فهي تنتحر انتحاراً ولا تموت موتاً طبيعاً.

كلّ ذلك يعني أنّ الحضارات الكبيرة تحمل في طياتها أسباب

(١) سورة هود، الآية ١١٧.

زوالها، ومن ثمّ فإنّ الحضارات تنحدر من تلقاء نفسها نحو الانهيار، وإن كانت العوامل الخارجية تسهم أحياناً في سقوطها، فمثلاً انهارت الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة التوسع الاستعماري المفرط، والتغيير المناخي، والتدهور البيئي، وضعف القيادة.

ولكن اجتياح القوطيين الغربيين لروما عام ١٤١٠م ومن بعدهم القنداليون عام ١٤٥٥م كانت بمثابة الضربة القاضية التي عجلت بنهايتها، فالحضارة مثل شجرة، إن كانت قد مدت جذورها في الأرض، وكانت قوية في سيقانها فمن الصعب أن تقلعها الرياح العاتية، ولكن حينما تكون ضعيفة في داخلها وخاوية، فإنّ أقلّ هبوب للرياح يؤدّي إلى سقوطها.

«ولا توجد حضارة على وجه الأرض محصنة من الانهيار، مهما بلغت عظمتها، فقد وصلت مساحة الإمبراطورية الرومانية في عام ٣٩٠م إلى ٤,٤ مليون كيلومتر مربع، ثم تقلصت مساحتها بعد خمس سنوات إلى مليوني كيلومتر مربع، وفي عام ٤٧٦م، لم يعد لنفوذها وجود»[١].

(١) هل نحن في طريقنا إلى انهيار حضاري؟، ليوك كيمب.

والسؤال هنا هو: هل ما قاله المؤرخ (أرنولد تونيبي) في كتابه «دراسة التاريخ» الذي يحلّل فيه عوامل نمو ثمانية وعشرين حضارة، وأسباب انهيارها، هل كان الرجل محقاً حينما قال: «إنّ الحضارات العظيمة تحمل في طياتها أسباب زوالها»؟

الجواب على ذلك: يمكن القول إنّ العوامل الداخلية لها تأثير كبير ومهم في انهيار الحضارات، فأصحاب كلّ حضارة يساهمون بشكل أو بآخر في المحافظة على حضارتهم، أو الإسراع في انهيارها.

يقول تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(١).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(٢).

ولكن كما أنه للعوامل الداخلية تأثير كبير، فإنّ ذلك لا يلغي دور العوامل الخارجية في انهيار الأمم، ويمكن القول إنّ العوامل الداخلية هي الأساس في السقوط، وما الخارجية إلّا مكملة لها.

(١) سورة النحل، الآية ١١٢.

(٢) سورة هود، الآية ١١٧.

فالآيتين السابقتين تشيران إلى أنّ العوامل الداخلية لها الأثر في انهيار القرى أو بقائها، وبالتالي فإنّ العذاب -وهو أمر خارجي- إذا نزل يكون نتيجة للعوامل الداخلية، ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1].

(١) سورة الروم، الآية٩.

معاول هدم الحضارات

بناء الحضارات يستغرق عقوداً من الزمن، وسقوطها يستغرق عقوداً من الزمن أيضاً.. وإن بدا في بعض الحالات أنّه حدث فجأة.

وفي كلتا الحالتين: تتظافر عشرات العوامل لتحقيق تلك النتيجة.

فالحضارة تشبه الإنسان: كلاهما يُولد وكلاهما يموت، وكما أنّ الإنسان لا يريد أن يصدق أنّه سيموت في يوم من الأيام، كذلك أصحاب الحضارات لا يحبذّون الحديث عن أنّ حضارتهم سوف تسقط، لكنّ الحقيقة تقول: إنّ سقوط الحضارة، ودمار الأمّم، وتخلف المجتمعات أمرٌ قد وقع في السابق، وإنّه يقع في اللاحق.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٤.

إلّا أنّ هذا السقوط وهذا الأجل ليس بالحتمية التاريخية التي ينادي بها البعض، وإنّما نتيجة لتراكم مجموعة من العوامل عبر الزمن.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على أسباب سقوط أيّة حضارة في التاريخ، لوجدنا أنّها تتلخّص في ابتعادها عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام، ومخالفتها لسنن الله تعالى في الحياة.

فأمّة عاد وثمود، وحضارة الفراعنة وأمثالها، إنّما سقطت بسبب استغنائها عن الخالق، وطغيانها على المخلوق.

يقول ربُّنا: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[1].

ونذكر هنا بعض عوامل سقوط الحضارات:

١- الكفر وعدم الإيمان بالله

حينما يُصاب محور العقيدة -وهو الإيمان بالله عزّ وجلّ- بالانهيار فإنّ الفرد إمّا أن يُصاب باليأس والإحباط والقنوط

(١) سورة الفجر، الآيات ٦-١٤.

وضعف الإرادة، أو يُصاب بالغرور والتجبر والعدوان، وكلاهما يؤدي إلى السقوط، ﴿..وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

فإذا زاغ المرء عن أمر الله عزّ وجلّ فإنّ الله يزيغ عنه فلا يجعل الكون في خدمته، يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

وكذلك الأمّم عندما يضعف إيمانها، ويدّب فيها الظلم فإنّها تنتهي إلى الدمار ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾[3]، وهذه السنّة الإلهيّة ثابتة، ومستمرة، وباقية ببقاء الكون.

إنّ الانحراف العقائدي والكفر بخالق هذا الكون له تأثير كبير ومباشر في انهيار البناء الحضاري، يقول تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[4]،

---

(١) سورة الحج، الآية ٣١.

(٢) سورة الصف، الآية ٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٥.

(٤) سورة العنكبوت، الآية ٣٨.

فالشيطان كان ولا يزال، يصوّر للإنسان أنّ مقاليد الأمور بيده، وأنّه كلما تطور وتقدم فهو قادر على البقاء والاستغناء عن العون الإلهي، «وكذلك يفعل المستكبرون والمفسدون فهم يوهمون الناس أبداً بأنّ التقدّم والرفاه والأمن والازدهار وحتّى الرزق الطبيعي إنّما يأتيهم نتيجة الكيان الاجتماعي والثقافي، والنظام السياسي والاقتصادي الذي يشرفون على تسييره، فلو تزلزل الكيان وانهدم النظام فإنّ كلّ الخيرات مهددة بالزوال»[١].

إلّا أنّ الحقيقة جلية وواضحة وهي أنّ كلّ أمّة كفرت بخالق هذا الكون ومدبّر شؤونه، سقطت وانهارت ولو بعد حين، فالله عزّ وجلّ هو الذي أعطى البشر القدرة على البناء، وهو أيضاً من أعطاه الطموح والرغبة في التقدم، وهو الذي أعطاه العقل للتفكير، وكلّ هذه هي من عوامل البناء الحضاري، يقول تعالى: ﴿..**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾[٢].

(١) تفسير من هدى القرآن، المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي، ج٤، ص٥٦.
(٢) سورة هود، الآية ٦١.

٢- المعاصي والذنوب

تنخر المعاصي والذنوب في جسم الحضارة، وتقضي عليها وأهلها غافلون منغمسون في عصيانهم لله، والذنوب لها تأثير سلبي مزدوج على المجتمع؛ فمن جهة هي تحدٍ للقدرة الإلهية الحاكمة على الكون بكل تفاصيله، ومن جهة أخرى هي مخالفة لكل قوانين التقدم الحضاري، ولها تأثير بليغ في القضاء على المنجز الحضاري.

يقول ربّنا: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾[١]، ويقول عزّ وجلّ: ﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾، فحقيقة الإهلاك بالذنوب والانهيار الحضاري بسبب المعاصي حقيقة ثابتة وإن تنكر لها البعض، قال الإمام الرضا عليه السلام: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمَا عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي، وَ لَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الأَحْبَارُ عَنْ ذَلِكَ**»[٢].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٧، ص ٨١.

إنّ معصية الله تعالى لا تقتصر على ترك الصلاة أو شرب الخمر أو ما أشبههما، بل إنّ عدم تطبيق النظام التشريعي الذي وضعه الله للبشر، هو نوع من العصيان وممارسة للذنب، ولذلك فإنّ الكثير من الحضارات سقطت بسبب عصيانها للخالق في عدم تحكيم النظام التشريعي الذي ارتضاه الله تعالى لهم، يقول ربّنا: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ**﴾[1].

والنظام الاقتصادي هو مثال واضح لهذا الأمر، فكلّ الحضارات التي حاولت أن تخترع لنفسها نظاماً اقتصادياً مخالفاً للنظام الإلهي فشلت، فلا الرأسمالية ولا الاشتراكية ولا غيرهما نجحوا في بناء نظام اقتصادي قوي، ولذلك رأينا الانهيارات الاقتصادية في التاريخ الحديث، وما أصاب العالم من أزمات مالية كان سببه ترك النظام الاقتصادي العادل الذي قرّره الله للبشر.

وكمثال على ذلك يبيّن لنا القرآن الكريم كيف أنّ أهل مدين حينما تركوا النظام الاقتصادي الذي أراده الله، وأفسدوا في الأرض أهلكهم الله بذنوبهم: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ**

(١) سورة المائدة، الآية ٦٦.

أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

فجاء جواب مدين الرافض للحق: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[2].

ونتيجة لمعاصيهم وذنوبهم كان الأمر الإلهي حاسماً: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[3].

٣- مخالفة سنن الباري عزّ وجلّ

لقد خلق الله تعالى الكون وما فيه على أساس مجموعة من السنن والقوانين والأنظمة، وهذه السنن حاكمة على كلّ شيء، فمن أراد الاستفادة مما في الكون فعليه أن يتعرف على هذه السنن والقوانيين، ثمّ يعمل على تطبيقها، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

(١) سورة هود، الآيات ٨٤-٨٥.
(٢) سورة هود، الآية ٩١.
(٣) سورة هود، الآية ٩٤-٩٥.

وَالأَرْضَ بِالحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، فمن يتصور أنّه قادر على القفز على هذه السنن، فليمنع الموت عن نفسه.

ترى هل يمكن أن تتجاهل الجاذبية، وتدّعي بعدم وجودها، ثمّ تلقي بنفسك من فوق سطح عالي وتقول سوف أصعد إلى السماء، ولن أسقط إلى الأرض؟!

ترى هل يمكن أن تمشي فوق سطح البحر، وتمنع نفسك من الغرق؟!

نعم يمكنك بمعرفة قوانيين الكون أن تسخّر ما يساعدك على التعامل معها، ولذلك فقد استطاع البشر أن يصنع الطائرة ليتجاوز الجاذبية، أو السفينة لتسير فوق الماء، وهكذا.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض هذه السنن واضح وجلي، وبعضها بحاجة إلى تبيين وتوضيح، ولذلك فقد بعث الله الرسل والأنبياء عليهم السلام ليبينوا لنا هذه السنن الخافية علينا.

وفي الحقيقة فإنّ «ما في عالم اليوم من مدنية مزدهرة، ليست بسبب الأنظمة الجاهلية الحاكمة هنا وهناك، وليست بسبب النظام

(١) سورة ابراهيم، الآية ١٩.

المادي، ولا حتّى بسبب فصل الدين عن السياسة، أو الانفصال عن الجذور التاريخية، وإنّما السبب وراء المدنية والتقدّم هو السعي من أجل عمارة الأرض، عبر الالتزام بسنن الله الصالحة، كالعمل والاجتهاد، والتعاون، والتطلع، وما دامت هذه الشعوب ملتزمة بهذه السنن فهي تحافظ على مكاسبها، وحين تنحرف عنها، وتستعيض عن السعي بالفخر، وعن الاجتهاد بالغرور، وعن التعاون والتطلع بالمفاخرة والاستغلال، فإنّها مهدّدة بفقدان مكاسبها.

فالحضارات البشرية تبدأ بتطبيق سنن الله في تسخير الحياة عبر الالتزام بأخلاقيّة السعي والتعاون، ولكنّها تنسى دور هذه السنن في تقدمها، وتتوجه إلى الأصنام، وتزعم أنّها هي واهبة التقدم والرفاه»[1].

ونضرب هنا مثالين:

أولاً: سلامة العلاقة بين الجنسين

لقد خلق الله تعالى الرجل والمرأة ضمن إطار محدد وسنن واضحة؛ فالرجل بطبعه يميل إلى المرأة وكذلك المرأة تميل إلى

(١) تفسير من هدى القرآن، المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي، ج٤، ص٥٧.

الرجل، ومنعاً للفوضى والتفسخ في المجتمع فقد وضع الله حدوداً وضوابط لهذه العلاقة، ففي الوقت الذي لم يقمع هذه الغريزة القوية إلّا أنّه حددها ضمن إطار الزواج الشرعي، وكذلك فقد بيّن الله الحدود في التعامل بين الرجال والنساء، ووجه الغرائز لتصب في مكانها الصحيح، ومن هنا فإنّ المجتمع الذي يقفز على هذه السنة سينهار حتماً، والأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة، وقد ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن قصة قوم نبيّ الله لوط عليه السلام وما حصل لهم نتيجة مخالفة هذه السنن؛ **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾**(1).

ثانياً: العمل والاجتهاد

إنّ سنّة الله تعالى في الكون قائمة على العمل والاجتهاد، وأن بلوغ الغايات لا يكون بالكسل والتقاعس، **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ**

(1) سورة الأعراف، الآيات ٨٠-٨٤.

إِلَّا مَا سَعَى﴾[1]، ولذلك فإنّ المجتمعات النشيطة والعاملة تبلغ أهدافها وتحقق طموحاتها، بعكس المجتمعات الخاملة المتكاسلة، فإذا تركت المجتمتعات المتقدمة الجد والنشاط فإنّها تنهار وتتراجع.

إذن فسنن الله تعالى حاكمة على الكون في كلّ شيء، وحاكمية سنن الله في إقامة الحضارات وتشييد الدول هي جزء من هذه الحقيقة، والمجتمع الذي يتخلّى عن السنن فإنّه مجتمع منهار وساقط.

٤- الظلم

وهو من أخطر الأمور التي تعجّل بانهيار الحضارات، وتفتت المجتمعات، وذهاب النعم، فـ«**الظُّلْمُ يَطْرُدُ النِّعَم**»[2]، و«**رَاكِبُ الظُّلْمِ يَكْبُو بِهِ مَركِبُهُ**»[3] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

إنّ زوال الأمّم والحضارات بسبب الظلم أمر طبيعي، ذلك أنّ الظلم يحمل أسباب انهياره في داخله، فلا يقوم بناء إلّا على العدل،

(١) سورة النجم، الآية ٣٩.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٤٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٣٨٦.

وما قام على الظلم فإنّه سينهار لا محالة، يقول تعالى: **﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾**(٤)، **﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾**(٥)، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الظُّلْمُ يُزِلُّ الْقَدَمَ، وَ يَسْلُبُ النِّعَمَ، وَيُهْلِكُ الأُمَم**»(٦).

«وإذا عمّ الظلمُ أمّةً فسوف يُذيب العلاقات والأواصر الحميمة الداخلية فيها؛ مما يجعلها مجتمعاً متفككاً لا يقوى على الصمود أمام قوى التحدي الداخلي، كما لا يقوى أمام الغزو الخارجي..»(٧)، ذلك أنّ «**مَنْ عَامَلَ رَعِيَّتَهُ بِالظُّلْمِ أَزَالَ اللهُ مُلْكَهُ، وَ عَجَّلَ بَوَارَهُ وَ هَلَاكَهُ**»(٨).

فمع وجود الظلم تفقد الأمّة توازنها في المجالات كافة ومن ثمّ تتفشى فيها ظاهرة الصراع الداخلي الذي يؤدّي إلى التقاتل والضعف والسقوط.

ومن أشد أنواع الظلم ذلك الذي يعمّ، مثل الظلم الاجتماعي والتمييز الطبقي، فإذا تفشى التمييز في المجتمع، وتمّ تقديم

---

(٤) سورة الأنبياء، الآية ١١.

(٥) سورة القصص، الآية ٥٩.

(٦) عيون الحكم والمواعظ، ص: ٥٢.

(٧) التدبر الموضوعي في القرآن الكريم، الشيخ علي آل موسى، ص٥٦١.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٦٣٤.

صاحب المال أو صاحب الجاه على الفقير والإنسان العادي انهار المجتمع، يروى هنا أنّه أُتي إلى رسول الله ﷺ بامرأة لها شرف في قومها قد سرقت فأمر بقطع يدها، فاجتمع إلى رسول الله ﷺ أناس من قريش فقالوا: يا رسول الله تقطع امرأة شريفة مثل فلانة، في خطر يسير.

فقال ﷺ: «**نَعَمْ.. إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هَذَا؛ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحُدُودَ عَلَى ضُعَفَائِهِمْ، وَ يَتْرُكُونَ أَقْوِيَاءَهُمْ وَ أَشْرَافَهُمْ فَهَلَكُوا**»[1].

٥- كفران النعم

وهو من الأسباب المهمة التي تؤدي إلى زوال الأمّم ونزول العذاب عليها، فالله عزّ وجلّ يريد من الأمّم أن تشكر نعمه شكراً عملياً وقلبياً، إلّا أنّهم يزدادون كفراً وجحوداً وإنكاراً لنعم الخالق تبارك وتعالى، يقول ربّنا: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾[2]، «وعبّر

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج١٨، ص: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية ١١٢.

القرآن عن وضعهم بعد الكفر بأنّهم تخلفوا إلى أن أصبح الجوع والخوف يحيط بهم كما يحيط بهم اللباس، وقد لا تكون هذه القرية واحدة عبر التاريخ، فربما تشير الآية إلى آلاف القرى التي تردت إلى هذا المستوى بسبب كفرها»[1].

ويذكر لنا القرآن الكريم مثالاً عمليّاً، وقصة حضارة كفرت بأنعم الله تعالى وجحدت بآياته بعد أن أعطاها الله الخيرات «ألا وهي حضارة (سبأ) التي كانت تمثل قبائل جنوب الجزيرة العربية في منطقة اليمن، وقد استطاعت هذه الأمّة أن تشيّد سد مأرب الذي ما تزال معالمه موجودة إلى الآن.

ففي ذلك الوقت الذي شُيّدت فيه الحضارة السبئية آتى الله سبحانه العرب الحكمة، فبنوا سدّاً في تلك المنطقة حفظوا فيه المياه، ثمّ شقوا القنوات إلى مناطق شاسعة من بلادهم، فعُمرت بذلك الأرض واستصلحت، حتّى أنّ الرجل كان يكفيه أن يحمل سلّة فارغة ويمرّ تحت الأشجار المختلفة ثمّ يعود إلى بيته، وقد امتلأت سلّته تلك بأنواع الفواكه دون أن يكلّف نفسه عناء قطفها!

واتسعت حضارة سبأ، ولكن أصحابها كفروا بأنعم الله، فأباد عزّ وجلّ حضارتهم، حيث سلّط على ذلك السد الفئران فهدمته،

(١) تفسير من هدى القرآن، المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي، ج ٤، ص٣٧٩.

فانطلق السيل العرم إلى المناطق الزراعية، وأغرقها مع أهلها، فهلك منهم من هلك، ونجا منهم من هرب إلى شمال ووسط الجزيرة العربية.

وقد حدّثنا القرآن الكريم عن هذه الحضارة بقوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ**﴾[(١)].

فالقرآن يشير هنا بوضوح إلى أنّهم لم يستحقوا العذاب والغرق والفناء إلّا لأنّهم أعرضوا وكفروا، فكانت نهاية مأساوية لحضارةٍ لو كانت شكرت أنعم ربها لدامت مئات السنين، إلّا أنّ الكفر هو الذي أدى إلى انقراضها وهي في أوج قوّتها وعنفوانها»[(٢)].

٦- صغائر الأمور

إنّ بعض العلل والأسباب الصغيرة قد تؤدّي إلى نتائج خطيرة، ومن هنا فإنّ تبدل الظروف في الحضارة قد يأتي بسبب تبدل نفسية

(١) سورة سبأ، الآيات ١٥-١٧.

(٢) الحضارة الإسلامية آفاق وتطلعات، المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي، ص ٢٤٦-٢٤٧.

الناس، وهذا أمر لا يلاحظه الكثيرون في البداية، لأنّ البشر عادة ما يغفلون عن صغائر الأمور ودقائقها، أو بتعبير آخر لاينظرون إلى ما يحدث في الجذور، وهو ما يؤدي إلى سقوط الحضارة، فالحضارات -كما ذكرنا- لا تسقط في العادة بالسكتة القلبية، أي لا تسقط فجأة وإنّما تضعف بمرور الزمن.

وكذلك الإنسان حيث يبدأ جسمه بالضعف والهزال نتيجة إهماله، وبتعاقب الليل والنهار يزداد ضعفاً حتّى يموت، ولكن هذا لا يحدث مرة واحدة، وكذلك الأمر في الجماعات والحضارات فمع مرور الزمن ونتيجة لتراكم أسباب صغيرة، قد تبدو تافهة لأصحابها، تضعف وتشيخ وتموت.

يقول ربّنا: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[1].

إنّ دود الفساد، والظلم، والطغيان، والتكبر، يبدأ في نخر جذور الحضارة وهذا يؤدي إلى إضعافها ومن ثمّ إلى سقوطها، ومن هنا فإنّ الاهتمام بالجزئيات والصغائر مهم، لأنّها مثل السوس الذي

(١) سورة النحل، الآية ٢٦.

ينخر في الجذور.

يقول ربّنا: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ**﴾(١)، فلربّ حادثة صغيرة تؤدي إلى بروز حوادث مماثلة هنا وهناك، وتتراكم هذه الحوادث حتّى تؤدي إلى سقوط الحضارة ،كما تتراكم الأمراض ونقاط الضعف في جسم الإنسان وتؤدي إلى وفاته.

وعلى كلّ حال فإنّ كلّ ما يصيب الأمّم والجماعات إنّما هو بعض آثار أعمالهم الخطيرة والموبقات والفساد الذي في داخلهم، يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾(٢)، فكما أنّ السقوط يأتي بسبب الذنوب الكبيرة فإنّه يأتي أيضاً بسبب تراكم الذنوب الصغيرة.

٧- الترف والبطر

البطر هو الطغيان عند النعمة، ذلك أنّ البشر حينما يغدق عليهم الباري نعمه يطغون ويتجبرون ولا يشكرون الله على ذلك، إلّا القلة القليلة منهم، فالله عزّ وجلّ قد جعل لكل نعمة

(١) سورة النور، الآية ١٥.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.

هدفاً، والشكر الحقيقي لها هو بالوصول إلى هدفها، أمّا أؤلئك الذين يتجاوزون الحدود ويطغون فإنّهم يضيّعون النعم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَ لَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ لَكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَت عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَ تُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم**»[١].

إنّ الضمان الحقيقي لاستمرار الحضارة هو باتّباع ما أمر الله تعالى به، فالأمّة التي تتّبع أوامر الله تعالى هي الأمّة القادرة على كبح جماحها من الاسترسال مع النعم إلى حد البطر والطغيان والغرور، حتّى تنسى الحدود، وتتجاهل الحقوق، ويندفع أبناؤها في اتباع اللذات إلى أبعد حد فيسقطون، يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ**﴾[٢].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «**البَطَرُ يَسْلُبُ النِّعْمَةَ وَ يَجْلِبُ النِّقْمَةَ**»[٣].

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، ج١، ص: ١٣٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٨.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ١٢٩.

٨- الفساد

يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[١].

فإذا انتشر الفساد في أمّة من الأمّم فإنّ القحط يطلّ برأسه عليها، وتقل الزراعة، وتضعف التجارة، وربّما تحدث الزلازل والحرائق والطوفان والسيول بسبب ما كسبت أيديهم، فربّنا يُذيق الناس الفاسدين بعض الذي عملوا، أي يرد عليهم آثار بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

فالمطلوب هنا أن ننظر إلى من سبقنا، لنعرف عاقبة الذين خالفوا أوامر الله تبارك وتعالى، وأشركوا به في أمورهم، والذين خالفوا أوامر الأنبياء والرسل عليهم السلام والصالحين من عباد الله.

وهكذا فإنّ هنالك ارتباطاً بين تقدّم الحياة أو تراجعها وأعمال الناس، ومواقفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبما أنّ

(١) سورة الروم، الآيات ٤١ - ٤٣.

فساد القلوب والعقائد يؤدي إلى فساد الأعمال، فإنّ ذلك يؤدّي إلى الفساد في الأرض، وربما يملأ الأرض فساداً برّاً وبحراً وجوّاً.

يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿**لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[١]، فالله لا يذيق الناس بكلّ أعمالهم إنّما ببعضها لسببين:

أوّلاً: لأنّ الله رحيم، ومن ثمّ فإنّه يريد للعباد أن يعيدوا النظر في أعمالهم، ويتوبوا إليه ويتراجعوا عن فسادهم.

ثانياً: لأنّ العقاب الأساسي سيكون في يوم القيامة.

والشاهد على كلّ ما سبق ما حدث لأهل القرى الظالمة، والمدنيات التي وقعت في مطبات الفساد، حيث إنّهم اكتووا بنار أعمالهم، وأصابهم التخلف وبعض عذاب الله عزّ وجلّ.

يقول عزّ وجلّ: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[٢].

---

(١) سورة الروم، الآية ٤١.

(٢) سورة الفجر، الآيات ٦-١٤.

والفساد أنواع متعددة ابتداءً من الفساد العقائدي ومروراً بالفساد الاقتصادي والإداري والسياسي، وانتهاءً بالفساد الاجتماعي، وكلّ أنواع الفساد لها تأثير بالغ في هدم الحضارات وسقوطها.

٩- ترك الأمر بالمعروف

لقد فرض الله عزّ وجلّ على الناس فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من أجل التصحيح الذاتي للمجتمع، وتقويم الاعوجاج الداخلي لأفراده، فإذا ترك الناس في مجتمعٍ ما هذه الفريضة فإنّهم يسمحون للانحرافات الداخلية بالشيوع في مجتمعهم، وبالتالي يبدأ المجتمع بالتفكك، بسبب تخلي قسم من أهله عن القوانين والقواعد الحاكمة فيه، يقول ربّنا: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[١].

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَإِذَا لَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَ لَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَ لَمْ يَتَّبِعُوا الأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ فَيَدْعُوا خِيَارُهُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ**»[٢].

---

(١) سورة هود، الآية ١١٦-١١٧.

(٢) الكافي، ج٢، ص ٣٧٤.

١٠- التفرق والاختلاف

من العوامل الأساسيّة لقيام أية حضارة هو وجود الهدف المشترك، أو الأهداف المشتركة التي يلتف حولها أهل تلك الحضارة والتي تكون بمنزلة العمود الذي يقوّم البناء الحضاري، ولذلك نرى أنّ التفرق والاختلاف يسبب الانهيار للحضارات، وهو «من الأسباب التي تقوِّض أركان المجتمعات وتهدمها؛ لأنّه يفتت قوّة المجتمع، ويحيله إلى كيانات متحاربة، ويضيّع جهوده وكفاءاته ضمن الصراع البيني، ومن ثمّ تكون قوته الداخلية ضعيفة، فضلاً عن قدرته على مواجهة العدوّ الخارجي لو تعرض لغزو»[١]

يقول ربّنا: ﴿.. **وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ..**﴾[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه: «**وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ.. فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ[٣] مُجْتَمِعَةً، وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَ السُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً،**

(١) التدبر الموضوعي في القرآن الكريم، الشيخ علي آل موسى، ص ٥٦٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٦.
(٣) جمع ملأ: بمعنى الجماعة والقوم، والأيدي المترادفة المتعاونة.

وَالبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَ العَزَائِمُ وَاحِدَةً، أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ العَالَمِينَ، فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَتِ الفُرْقَةُ، وَ تَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الكَلِمَةُ وَ الأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ وَ تَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، وَقَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ»(١).

لذلك نرى أنّ الطغاة والمستعمرين دائماً ما كانوا يشعلون نار التفرقة، ويبحثون عن أي خلاف في المجتمع، فيصبّون الزيت عليه ليزداد اشتعالاً وتعمقاً، وهكذا فقد كان شعار المستعمرين دائماً هو (فرّق تسد Divide to rule) لكي يبسط المستعمر سيطرته على المستعمرات، والأمثلة جلية وواضحة في ذلك، ففي الهند أثار النعرات بين الهندوس والمسلمين، وفي المناطق العربية أثار الصراعات المذهبية وغير ذلك.

«لقد كانت الحكومة البريطانية تزوّد مبعوثيها للمناطق الإسلامية بمعلومات ملخصها ومفادها تطبيق السياسة البريطانية المعروفة (فرّق تسد)، ومن بين القضايا التي حظيت بأهمية استثنائية لدى الانكليز هي تعميق الفرقة والاختلاف بين مذاهب

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٢.

الإسلام، كي لا تتوحد صفوف المسلمين، وتقوى شوكتهم الأمر الذي يؤدي بالضرر الفادح لمصالح الانكليز في بلاد المسلمين»[١].

ولقد أشار الكاتب والصحفي البريطاني مارك كيرتيس في كتابه (شؤون سرّيّة) إلى ممارسة بلاده لهذه السياسة في الكثير من الدول.

١١- الاستبداد

إنّ التقابل بين الحق والباطل، والعدل والجور، والإيمان والكفر هو تقابل حقيقي، ولأنّ قيام الحضارة قائم على الحق والعدل فإذا اختفى العدل والحق وحل مكانه الظلم والاستبداد فإنّ الحضارة تزول، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ**»[٢].

في الأمّة التي سيطر عليها الاستبداد نرى أنّه لا يوجد في ظل الحاكم الفرد إلّا شخص واحد وحوله جنائز، وصوت واحد وحوله صدى، ودور واحد وحوله هتافات، وحنجرة الحاكم هي الوحيدة التي تنطق بالكلمات، بينما بقية الحناجر مخنوقة في داخل

(١) آفاق الحضارة العربية الإسلامية، فاضل محمد الحسيني، ص٢٢٠.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٦١.

أجسام أصحابها، والخوف يخيّم على البلد، ويشعر الناس في ظل الحاكم الفرد أن لا وجود لهم، فهم إذا كانوا أحراراً في أن يأكلوا، ويشربوا، وأن يمشوا في الشوارع، فليسوا أحراراً في أن يفعلوا ما يريدون، وبذلك فإنّ الحاكم الفرد يقتل كلّ مجالات الإبداع الحضاري ويحكم على نفسه وعلى دولته بالانهيار.

صحيح «أنّ الطغاة والفاسدين المفسدين من جلاوزتهم يزعمون أبداً: أنّ وجودهم واستمرار سيطرتهم يضمن للمجتمع الأمن والازدهار، بينما لا يضمن الطغيان إلّا الخراب والدمار، لأنّه يكبت طاقات الناس، ويضعف إرادتهم، فلا هم قادرون على عمارة بلدهم لأنّ طاقاتهم مكبوتة، ولا هم قادرون على المحافظة على بلدهم، لأنّهم ضعفاء الإرادة»[١].

وكمثال تاريخي للاستبداد يذكر لنا القرآن الكريم طغيان فرعون، وكيف أنّه كان حائلاً أمام تقدم أمّته ورقيها، فقد كان مستبداً إلى أبعد الحدود، حتّى أنّ السحرة حينما رأوا الحق وقرروا الإيمان بنبي الله موسى عليه السلام، اعترض عليهم فرعون وقال لهم: ﴿..**آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ**

(١) من هدى القرآن، ج٣، ص١٥٣.

لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، معتبراً نفسه قيّماً ووليّاً على الناس، فلا يجوز لهم أن يتخذوا قراراً إلّا بعد إذنه، وكان هذا القرار الاستبدادي مانعاً من تحرر الناس من عبادة البشر والتوجه إلى عبادة خالق البشر.

* * *

هذه إطلالة على بعض عوامل السقوط الحضاري، يجب على كلّ أمّة أن تضعها نصب عينها كي تتجنب السقوط، كما يجب علينا أن نتعظ بما أصاب الحضارات السابقة وندرس العوامل التي سببت زوالها وانهيارها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلَاتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ(٢) وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الكِبْرِ كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ..

وَ احْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ(٣) بِسُوءِ الأَفْعَالِ

(١) سورة الأعراف، الآية ١٢٣.

(٢) مَثَاوي: جمع مثوى بمعنى المنزل. ومنازل الخدود: مواضعها من الأرض بعد الموت.

(٣) العقوبات.

وَ ذَمِيمِ الأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الخَيْرِ وَ الشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَ احْذَرُوا أَنْ تكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، فَإِذَا تفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ فَالزَمُوا كُلَّ أَمْر لَزِمَتِ العِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَ زَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَ مُدَّتِ العَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَ انْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَ وَصَلَتِ الكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ؛ مِنَ الاِجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَ اللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، وَ التَّحَاضِّ عَلَيْهَا وَ التَّوَاصِي بِهَا، وَ اجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَ أَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ[1] مِنْ تَضَاغُنِ القُلُوبِ، وَ تَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وَ تَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَ تَخَاذُلِ الأَيْدِي»[2].

(١) المُنّة – بضم الميم–: القوة.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٢..

الحضارة
بين الحتمية والاختيار

هل هنالك حتمية حضارية أو تاريخية في الكون؟

هل التقدم الحضاري مختص بأمّة معيّنة، وعلى باقي الأمم تجرع مرارة التخلف والتراجع؟

أمّ أنّ التقدم والتراجع الحضاريان مرهونان بأسباب وعوامل ذاتية؟

هنالك من يدّعي أنّ للتاريخ مساراً واحداً يسير فيه، ويعتقد بضرورة السير ضمن هذا المسار، حيث إنّ الناس ضمنه مقيدون بحتميات تسيّرهم نحو مصير واحد، ومن جهة أخرى هنالك من يدّعي أنّ التاريخ والتقدم الحضاري وصل إلى ذروته ونهايته، فما وصلت إليه البشرية اليوم من مدنية بكلّ جوانبها السياسية والاقتصادية هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وأنّها ستبقى في هذه المدنية التي توفر لها الرفاه والسعادة، ولن تتراجع، فلا بديل عن

هذه الحضارة إلّا نفسها.

في الحقيقة هنالك العديد من أشباه هذه النظريات أو القراءات للتاريخ وللحضارات، والتي تقوم جميعها على مجموعة من المرتكزات الخاطئة؛ كالحتمية التاريخية، أو القطب الواحد الحاكم، أو التفضيل والتمييز العشوائي، أو غير ذلك.

فالبعض يعتقد خاطئاً أنّ التقدم محصور بفئة محددة دون أخرى، وأنّ هذه الفئة لها الحق المطلق في الانطلاق الحضاري، بينما على باقي البشر القبول بالتخلف الذي يعيشونه، بل عليهم أن يتحولوا إلى عبيد لدى الفئة المتقدمة.

تُرى، هل إنّ ما قاله الكاتب الأميركي «فرانسيس فوكوياما» في كتابه «نهاية التاريخ» من أنّ «فوز الغرب في الحرب الباردة جاء ليشكل علامة مميزة وفارقة، جسدت بدورها وصول التطور البشري إلى ذروة النضوج والاكتمال»

هل كان هذا الكلام صحيحاً من الناحية الواقعية اليوم؟

أم أنّنا نرى حركة صاعدة ونازلة في مختلف المواقع، وتبدل وتحرك للأقطاب، ونمو حضاري في مكان وتراجع حضاري في مكان آخر، ولو كانت النظريات المطروحة كلها صحيحة لما ظهر

من علماء ومفكري الغرب من ينتقدها.

فعلى سبيل المثال نرى أنّ الكاتب «روبرت و. ميري» في كتابه «رمال الإمبراطورية» ينتقد وبشدة مثل هذه النظريات، ويرى أنّ التاريخ لا يسير في خط مستقيم، بل يتبع مساراً حافلاً بالانحناءات، والتعرّجات بل والاستدارات، فلا المنتصر فيه سيظل منتصراً ومتفوقاً، ولا المهزوم سيظل متخلفاً مهزوماً.

***

نعود مرة أخرى إلى السؤال الرئيسي:

هل إنّ التقدّم قضاء وقدر بالنسبة إلى البعض، والتخلف قضاء وقدر بالنسبة إلى غيرهم؟

الجواب:بالطبع لا؛ فالناس على كلّ حال أحرارٌ في مواقفهم وتصرّفاتهم، والله تعالى قد وفر الموارد والإمكانات للجميع، ولم يحرم أحداً منها، ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[1]، فمن يسير ضمن السنن الإلهيّة فإنّه يتقدم ويتطور، ومن يخالفها فإنّه سيتراجع بلا شك، فالمزارع الذي يستفيد من النعم التي أعطاها ربّنا له، من الأرض والماء والبذور

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٠.

ويعمل ويجتهد فإنّه سيحصد الثمار اليانعة، أمّا من يملك الأرض ولكنّه يجلس في داره وينتظر أن تعطيه الأرض من نفسها الثمار فإنّه بلا شك لن يحصل على شيء.

ومن رحمة الله تعالى بالبشر أنّه جعل لهم مسار عودة وتراجع، فإذا أفسدوا ثمّ رجعوا عن فسادهم، فالله تعالى يغيّر طريقته معهم، فربّنا يريد أن يتراجع الناس عن غيّهم، وهو إذ يذيقهم بعض العذاب فما ذلك إلّا لكي يرجعوا، يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1].

وإذا كان الحديث في هذه الآية المباركة عن أمّم سابقة، فذلك لكي نتعرف على سنن الله تعالى في الحياة، كما أنّها تحذير للأمّم التي ستأتي من بعد، فمن رأى عاقبة الفساد لا بدّ أن يبتعد عنه، ومن رأى عاقبة الظلم لا بدّ أن يتجنبه، فإنّ ما حدث للأمّم السابقة سوف يحدث الآن وغداً، ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾[2].

(١) سورة الأحقاف، الآية ٢٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٦.

يجب على البشرية أن تقرأ التاريخ وتستخلص العبر، وتتعرف على الأسباب والنتائج التي أدت إلى قيام الحضارات السابقة، وكذلك الأسباب التي أدت إلى سقوطها، وذلك من خلال الدراسة الجادّة والفاحصة لقصص بعض الأمّم، مثل قصة فرعون وبني إسرائيل، ذلك أنّ أهل مصر حينما بنوا ما بنوا وازدهرت أحوالهم أخلدوا إلى الأرض، ومارسوا الظلم والعدوان، وأصبح ذلك منهجاً سياسياً واجتماعياً لهم، فقد أمر فرعون بذبح رجال بني إسرائيل، والإبقاء على نسائهم، ولما بلغ الظلم نهايته قضى ربّنا أن يزيل فرعون عن ملكه، ويرفع من شأن المستضعفين من بني إسرائيل.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

صحيح أنّ الله عزّ وجلّ يُهلك الأمم أحياناً في لحظة واحدة، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ السقوط المفاجئ لم يكن نتيجة تراكم مجموعة

(١) سورة القصص، الايات ٤-٦.

من الأسباب والعوامل، من هنا رأينا كيف أنّ فرعون وآل فرعون تعاقبت عليهم المجاعات، ونزل عليهم الدم، وآذتهم كثرة القمّل والضفادع، وأكَلَ الجراد حرثهم، قال تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾[1].

وهكذا فإنّ أفعال البشر هي التي ترسم مساراتهم، سواءً صعوداً أو انحداراً، ولذلك فإنّ الالتزام بالوعي والحكمة كفيلٌ بإبعاد الناس عن الهلاك الذي يأتي نتيجة الظلم والعدوان والطغيان والتجبر والتكبر في الحياة.

إنّ الحضارات ليست ملكاً لجماعة دون جماعة، وإنّ بقاء الحضارات ليس أبدياً لقوم دون قوم، كما أنّ سقوطها ليس حتمياً، فإذا غيّر الناس أحوالهم غيّر الله سنّته فيهم.

من هنا نجد أنّ نفس بني إسرائيل الذين أنقذهم الله باتّباعهم لموسى بن عمران عليه السلام، ونصرهم على فرعون وآله، حينما دبّ الفساد فيهم أُهلكوا كما أُهلك الذين من قبلهم، فالله يورث الأرض عباده الصالحين، لكن هذه الوراثة منوطة بسنّة

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

الاستقامة، وبالاعتقاد السليم والعمل الصالح، واتّباع منهج السماء، والالتزام بالقيم والمثل التي أقام الله الكون عليها.

فالفراعنة تقدّموا حينما أخذوا بأسباب التقدم، وتراجعوا بل وهلكوا، حينما لم يلتزموا بأسباب التقدم التي منها الإيمان بالله واتّباع الأنبياء عليهم السلام.

ثمّ إنّ بني إسرائيل أيضاً حينما انحرفوا كانحراف الفراعنة سلبهم الله ملكهم، وأورث ذلك لغيرهم، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾(١).

وهكذا يمكن القول إنّ التاريخ صناعة الله تعالى، لكن على أيدي الناس، فإذا اتّبع الناس ما أراد الله منهم، تقدّموا في الحياة وحَسنت معيشتهم، وإلّا تخلفوا وأصبحت معيشتهم ضنكاً، لذلك فإنّ ربّنا لا يذكر أمّة أصيبت بالدمار والهلاك إلّا وذكر أسباب ذلك، مثل ارتكابهم للجرائم والفساد في الأرض، وفسوقهم عن أمر ربّهم وسقوطهم في الموبقات، كذلك تقدم الأمّم إنّما هو بسبب التزامهم بأمر ربّهم، فما يصيب الناس من حسنات أو سيئات، أو فرحٍ أو

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٢.

قرح، أو سعادة أو شقاء فبما كسبت أيديهم، ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ**﴾[1].

وهنا ملاحظة هامة، وهي أنّ هلاك الأمّم إنّما يكون إذا ساد الطغيان والظلم والفساد في الأمّة، فبمجرد أن يرتكب فرد واحد لجريمة من الجرائم لا يؤدي ذلك بالضرورة إلى سقوط الأمّة كلها، كما إن صلاح شخص واحد في أمّة فاسدة، لا يؤدي إلى رقي تلك الأمّة بالضرورة، وهذا يعني أنّ ظلم الإنسان لنفسه، من خلال فساده العقائدي أو العملي أو الأخلاقي ليس مدعاة لهلاك الجميع ما دام مقتصراً على فرد أو مجموعة أفراد، بينما الأمّة محتفظة بكيانها الصالح وديمومية التزامها بالمبادئ والقيم، ولكن إذا تجاوز الظلم والفساد الأفراد إلى مستوى الأمّة، فإنّها تبدأ بالتراجع حضارياً ومن ثمّ السقوط إلى درك الذّل والهوان وانتهاء دولتهم.

يقول ربُّنا عزّوجلّ وهو يكشف عن هذه المعادلة عن قصة قوم نوح: ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ**

(١) سورة الأنفال، الآيات ٥٣-٥٤.

البَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، فالله يهلك الأمّة عندما يكون أكثر أفرادها غير ملتزمين كما حدث في قوم نوح.

ويقول ربّنا أيضا عن قوم ثمود وقوم صالح: **﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[2].

وهكذا فإنّ قيام الحضارات له جذوره في التاريخ، وسقوطها أيضاً له جذوره في التاريخ، فالبدايات قد لا تكون مرئية، ولكن عندما تقوم الحضارة ويراها الناس حينها يُعلم أنّ هذه الأمّة كانت قد التزمت ببعض المبادئ والقيم والمثل، وكذلك سقوطها هو بسبب عدم الالتزام بما يمكن تسميته بالحق بمعناه الواسع والذي يعني الإيمان والعمل الصالح، وحاكمية المبادئ والقيم والنظام الاجتماعي الصالح.

خلاصة الكلام: ليس هنالك حتمية تاريخية تفرض نفسها على البشر، كما أنّه ليس هنالك من هو متقدم دائماً ومن هو متخلف دائماً، وإنّما في الحياة دورات، وهذه الدورات تعتمد على عمل الناس وسعيهم.

(١) سورة الشعراء، الآيات ١١٩ - ١٢١.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٥٨.

توقّف النموّ
إيذان بانهيار الحضارة

يختلف الناس في نموهّم من شخص إلى آخر، فهناك من يتوقّف عن التقدم بعد فترة قصيرة من الزمن، وهناك من يستمر في ذلك بطريقة منتظمة.

إنّ النبيّ ﷺ حينما قال «**اطلبوا العلم ولو بالصين**»(١)، أو «**اطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد**»(٢) ما كان يعني أنّ على الإنسان أن يقرأ ويكتب من أول عمره إلى آخره، بمقدار ما كان يعني أن يبقى في ديمومة من النموّ علميّاً، وعقليّاً، وعمليّاً.

ذلك أنّ الإنسان يختلف عن غيره من الموجودات في كونه إذا توقّف تأخر وتراجع إلى الوراء، بينما السيارة إذا توقّفت فإنّها تكون قد توقفت فقط، ولم تتراجع إلى الوراء.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ،**

(١) الذريعة إلى حافظ الشريعة ج٢، ص٣٨٩.

(٢) كشف الأسرار في شرح الإستبصار، ج١، ص٧٣.

وَمَنْ كَانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ خَيْرَهُمَا فَهُوَ مَغْبُوطٌ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ يَوْمَيْهِ شَرَّهُمَا فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَمَنْ لَمْ يَرَ الزِّيَادَةَ فِي نَفْسِهِ فَهُوَ إِلَى النُّقْصَانِ، وَمَنْ كَانَ إِلَى النُّقْصَانِ فَالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الحَيَاةِ»[1].

فالإنسان كالماء؛ فكما أنّ الماء إذا توقف أصبح آسناً وفسد وأفسد ما حوله، كذلك الإنسان إذا توقف عن التغيير والإصلاح الدائمين، لأنّ الحياة بين أمرين لا ثالث لهما، إمّا أن تتطوّر إلى الأحسن أو تتراجع إلى الأسوأ، وليس الإنسان استثناءً من هذه المعادلة الربانية والتي تقول: إمّا التغيير إلى الأحسن، وإمّا التراجع إلى الأسوأ، وحينما يكون التراجع إلى الأسوأ، فإنّ الموت والركود والتوقف وكل سيئات الحياة تتراكم في ذلك المجتمع، وأولئك الناس الذين يرفضون التغيير.

أمّا لماذا يتوقف الناس في وسط الطريق؟ فإنّ ذلك يعود لعدة أمور فمثلاً: البعض يتوقّف بسبب الغرور، حيث يظن أنّه بلغ أقصى ما يمكن بلوغه، وآخر يتوقف لأنّ اليأس قد خيّم عليه، فهو يعتقد بأنّه لا يستطيع أن يبلغ أكثر مما بلغه من التقدم والرقيّ.

لذلك فإنّك ترى أنّ الذين يعملون في المعامل -مثلاً- على

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٩٤.

صنفين: صنف يعمل وبعد عشرة أعوام يمتلك معملاً يديره بنفسه، والآخر يظلّ على وضعه وعمله، حتّى بعد أكثر من ١٠ أعوام من الزمن.

بعض القرويين ومنذ ٥٠٠ عام لا يزالون يعملون نوعاً واحداً من العمل وبأسلوب معيّن، لكنهم يبقون حتّى بعد خمسة قرون من الزمن في نفس المستوى من الإنتاج، لأنّهم لم يطوّروا أساليبهم ولم ينمّوا قابلياتهم.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الحضارات فالحضارة، التي تتوقف عند نقطة معيّنة، سواءً كان هذا التوقف غروراً أو جهلاً، فإنّها بلا شكّ وكأنّها تعلن بداية الانهيار، وقد رأينا عبر التاريخ كيف أنّ الكثير من الحضارات زالت وبادت حينما توقفت عندها عجلة النمو والتقدم.

إنّ أيّ حضارة تطمح بالبقاء والاستمرار لا بدّ لها من الحركة الدائمة نحو التطور، والحضارة التي ترغب في النمو وعدم الانهيار لا بدّ لها من أمرين:

- **الأوّل**: تقييم مسيرتها بين فترة وأخرى، تماماً كمن يريد بلوغ هدف ما بسيّارته، فهو ينظر بين فترة وأخرى إلى

الخارطة ليتأكد من أنّه ما زال يسير في الطريق الصحيح، وأنّه لم ينحرف عن مساره، وبهذا المعنى فإنّ تقييم المسيرة يعني الارتياد على مواقع البناء لتقييم الاعوجاج في جسم المسيرة.

- **الثاني**: الحركة والتطوّر، فلا يجوز التوقّف، لأنّه يعني التراجع كما ذكرنا، ولذلك ينبغي تنويع الأساليب والوسائل، فالتجمّد يعني الانتحار، لأنّ عجلات الحياة مسننة تطحن من يقف في طريقها من دون حركة.

ولا بدّ أن نقول هنا: إن تطوير الأساليب أمر مهم، ذلك أنّ الأمّة الجامدة تنهزم وتخرج من الريادة الحضارية، فلو اكتفت أمّة بحد معيّن من التطوّر العلمي، وتوقّفت عن البحوث والدراسات العلميّة، فإنّها قد تكون بداية متقدمة علميّاً، إلّا أنّها بسبب تعطيل البحث العلمي ستصبح أمّة متخلفة بعد أن كانت رائدة، فلو أن شعباً اكتفى بالإذاعة الصوتية فإنّه سيجد اليوم منافسة قوية من شعوب أخرى تملتك القنوات الفضائية، وإذا توقف جيش ما عند عند القنبلة العادية فإنّ عدوّه سيستخدم الصواريخ، وإذا قبلت شركة طيران بطائرة نقل سرعتها ٥٠٠ كيلومتر في الساعة، فإنّ شركات أخرى ستتغلّب عليها بطائرات تسبق الصوت بمرّات عديدة.

وتجارب الشعوب والأمّم واضحة في هذا المجال، فكم من أمة كانت سبّاقة في مجالات متعدّدة، أصبحت اليوم في مؤخرة الركب العالمي.

ولهذا فلا يجوز لنا أن نرضى بحد معيّن من التطوّر، سواء على المستوى الشخصي أو الجمعي، فالذي يرضى بتوقّف نموّه كفرد، فإنّه يوافق على انهيار حضارته كجماعة!

إنّ تطوّر الحضارات وعدم جمودها، أمر مهم وأساسي في هذه الحياة، ذلك أنّ التجديد من أسرار استمرار الحياة، فالبقاء على حالة واحدة معناه الموت، فلو أنّ الليل لم يتحوّل إلى نهار، أو أنّ النهار لم يتحوّل إلى ليل، أو أنّ الطفل لم يكبر، أو أنّ الكبير لم يهرم، أو أنّ الشتاء لم يتحوّل إلى ربيع، أو أنّ الربيع لم يتحوّل إلى صيف.. لكانت الحياة جامدة كجمود المقابر، التي تتركها الآن لتعود إليها بعد ألف عام لتجدها كما كانت، لا حركة فيها، ولا تغيير، ولا تبديل..

فالتجديد إذن قانون هذه الحياة، والحضارة التي تتناغم معه، فتطور عملها، وتجدّد فيه، وتأتي دائماً بالجديد فسوف يكتب لها النجاح، أمّا الحضارة التي ترفض التجديد، وتقبل بالجمود، فهي التي تحكم على نفسها بالفشل.

إلّا أنّ التجديد والتطوّر المطلوب، هو ذلك التجديد والتطوير ضمن إطار أصالة القيم والالتزام بالثوابت، فالحضارة التي تتجاوز القيم بدواعي التطوير هي حضارة تتجه نحو الهاوية دون أن تشعر، وإنّ التجديد المبتني على نقض الثوابت هو تدمير للأمة، ذلك أنّ سنن الله تعالى حاكمة على الكون، ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**﴾[١].

(١) سورة فاطر، الآية ٤٣.

استيراد الحضارة وتصديرها

هل الحضارات قابلة للاستيراد؟

وهل هي قابلة للتصدير؟

وكيف يتم ذلك، إذا كان ممكناً ؟

وإذا لم يكن ممكناً، فلماذا؟

هنالك من يدّعي أنّ الحضارة لا يمكن استيرادها؛ لأنّ الحضارة علمٌ ومعرفة، وعادات وتقاليد سليمة، وهي أمور لا بدّ أن نتعلّمها، ولا يمكن أن نستوردها.

وقد يقول هذا الكلام من هو منبهر بحضارة الغرب، ويرى أنّ علينا أن نصدّر إليها بقايا حضارتنا، وننتقل معها إليهم ونذوب فيهم.

أي أنّه يرى خصوصية في المكان والزمان، فهذا العصر في نظره هو عصر الغرب، والمكان الطبيعي لمن أراد العيش في بحبوحة من التقدم المادي، فلينتقل إلى هناك.

وقد يقول ذلك من ينظر إلى الحضارات نظرة الباحث وليس نظرة المنبهر.

وفي الواقع فإنّ الحضارات تاريخياً كانت تنتقل من مكان لمكان وتتفاعل فيما بينها.

ذلك أنّ للحضارة بذرة، إذا زُرعت في أرض نمت، وإذا نمت أنتجت، لا فرق أن تكون تلك الأرض الصين، كما كانت لها حضارة في قديم الزمان، أو الهند أو مصر، أو الشرق الأوسط، أو القارة الأوربية، أو القارة الأمريكية، أو أي مكان آخر.

فمن أراد الحضارة فلا بدّ أن يفهم أصولها، وأن يدرس كيف يتمّ قيام الحضارات، وكيف يحدث سقوطها.

من أراد استيراد بستان من مكان إلى مكان فلن يتم له ذلك عن طريق استيراد الورود والثمار، بل باستيراد البذور والنبات، أمّا التربة فهي عادة ما تكون صالحة.

إنّ الذي يستورد الثمرة، ويظن أنّه قد استورد البستان فهو مخطئ، ومن يستورد السيّارة ويشتري الطائرة، ويظنّ أنّه استورد الحضارة فهو مخطئ أيضاً.

فكلّما استوردتَ السيارات المصنعة الجاهزة مثلاً، وتجنبت

التفكير في عملية إنتاجها في أرضك أخّرت قيام حضارتك، لأنّك نقلت المال الذي هو من أُسس البناء الحضاري، نقلته من أرضك إلى أرض غيرك، وعطلت العقول، وحولت الناس إلى مستهلكين بدل أن يكونوا منتجين.

إنّ الحضارات قابلة للتصدير بأصولها، وجذورها، فمن أراد استيراد الحضارة فليتعلّم العلم، وليمتلك عناصر القوّة، بما في ذلك المال والرجال، والتنظيم الدقيق للحياة والعلوم وما أشبه.

حينما تكون الأمّة متماسكة، وواعية، وواثقة من نفسها فهي بدل أن تستورد السيارات تستورد مصنعها، وبدل أن تستورد أجهزة إلكترونية تستورد المخطط الذي صنع تلك الأجهزة، وبدل أن تندب حظها العاثر تحي في نفسها روح القيم والمبادئ.

نحن نستطيع أن نكون تلاميذ لدى حضارات الآخرين، فـ «**أَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ**»(١) كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنأخذ الجيد منها، وما يتناسب مع قيمنا وديننا وظروفنا وتربيتنا ومناخنا، ونبني حضارتنا، ولربما تكون حضارتنا حينئذٍ أقوى وأكثر تماسكاً وأهم وأفضل إنتاجاً من حضارة غيرنا، لأنّ

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص: ٣٩٥

غيرنا لم يكن قد سبق بمثل الحضارة الفعلية، ونحن قد سبقنا بها.

أمّا إذا فقدنا الثقة بالذات، ورأينا في حضارة الغرب نهاية الحضارات، والسقف الذي لا يمكن تجاوزه، فلن نستطيع أن نبني حضارة بأمّة خائرة القوى، لا تملك من الثقة بالنفس شيئاً، وترى أنّ كلّ شيء قد انتهى بالنسبة إليها.

لقد رأينا كيف أنّ بعض الأمّم تعلّمت أو قلّدت أو سرقت من غيرها عناصر قوّتها، وبنت نفسها واستطاعت أن تنافس حضارات الآخرين.

هذه هي الدولة الصغيرة التي بالكاد تُرى في الخارطة (سنغافورة) استطاعت خلال فترة زمنية قياسية أن تنافس الغرب فيما يمتلك من تكنولوجيا، وفيما يمتلك من مال، وحسن التنظيم للحياة، وأصبحت تنافس أقوى الدول في عمليات الاستيراد والتصدير.

لقد شهدت سنغافورة بعد الانفصال عن ماليزيا عام ١٩٦٥م وضعاً متردياً جداً، يسوده الفوضى والبطالة والفقر وعدم الاستقرار، وانعدام الموارد الطبيعية لدرجة أنّها كانت تستورد الماء والتراب من جيرانها، إلّا أنّ هذه الجزيرة الصغيرة، رغم كلّ

الصعوبات، استطاعت أن تنهض وتنطلق وتصبح اليوم رابع أهم مركز مالي في العالم، وخامس أغنى دول العالم من حيث احتياطات العملة الصعبة، وثالث أكبر مصدر للعملة الأجنبية، كما أنّها تعتبر المركز المالي والتكنولوجي الأول في المنطقة.

رغم أنّ ما حصل في سنغافورة قد حصل في فترة زمنية قصيرة جداً إلّا أنّه لم يكن معجزة أو قفزة حظ، بل كان نتيجة لمجموعة من العوامل المتنوّعة، إضافة إلى جهود جبارة بُذلت في هذا البلد الصغير.

ولعلّ أحد أهم العوامل المساهمة في هذه القفزة هو الاهتمام بتجارب الشعوب، ومحاولة استيراد المبادئ الحضارية من الحضارات الأخرى، وإعادة زراعتها ضمن شروط بيئتها.

يقول «لي كوان يو» رئيس وزراء سنغافورة الأسبق، ومؤسّس نهضتها الحديثة : «الدول تبدأ بالتعليم، وهذا ما بدأت فـيه عندما استلمت الحكم فـي دولة فقيرة جداً، اهتممت بالتعليم أكثر من نظام الحكم، فبنيت المدارس، والجامعات، وأرسلت الشباب إلى الخارج للتعلم، ومن ثمّ استفدنا من دراساتهم وتجاربهم في الخارج لتطوير الداخل السنغافوري»، كما أنّ «لي كوان يو» كان هو أيضاً

قد درس في جامعة كامبريدج البريطانية.

ومن قبل (اليابان) ومعها (كوريا الجنوبية) و(تايوان)، واليوم (الصين) هي الأخرى تقوم من كبوتها، وتنافس الحضارة الغربيّة بما تمتلك من قدرات ذاتيّة وتقدم صناعي وحضاري.

إنّ العناصر الأساسية للحضارات هي:

القيم + الإنسان + العلم + الروحية العالية + العمل.

تلك هي العناصر الأولية لبناء الحضارات، وهي عناصر يمكن أن تمتلكها أية مجموعة بشرية في أي مكان، سواء كانت كبيرة كالصين، أو صغيرة كسنغافورة، وسواءً كانت في أرض لا تملك شيئاً كالأرض البركانية مثل اليابان، أو في منطقة تزخر بالموارد الطبيعية مثل البترول والمعادن كبلادنا.

الحضارات إذن قابلة للاستيراد، كما هي قابلة للتصدير، ولكن ليس بمعنى استيراد المنتوجات، وإنّما استيراد التقدم العلمي والتنظيم الصحيح، وتكاملية القيم، والاستفادة من تجارب البشر، وتلاقح العقول.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ العقل ركن أساسي في البناء الحضاري، فإنّنا نجد -مع الأسف- أنّنا نصدّر هذه العقول

إلى الآخرين، فالأطباء والمهندسون والحرفيون والكتّاب وكبار الخبراء الصناعيين يهاجرون من بلادنا زرافات ووحداناً إلى الدول الأخرى.

ووفقاً لإحصاءات البنك الدولي لعام ٢٠١٠م فإنّ نسبة المهاجرين من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تبلغ ٣,٥٪ من سكانها، وهي أعلى نسبة مغتربين في العالم؛ حيث تُقدر بيانات البنك الدولي أنّ هناك حوالي ١٨,١ مليون مهاجر من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا عام ٢٠١٠م، وفي عام ٢٠١٥م هاجر من السودان وحدها نحو ٥٠ ألفاً من الكفاءات السودانية، من أساتذة الجامعات والأطباء، والصيادلة، والمهندسين، والعمال المهرة، حسب إحصاءات جهاز تنظيم شؤون المغتربين في السودان، كما أنّ الحكومة أعلنت أنّها فقدت ٣٤٪ من الكوادر العلمية والباحثين في المركز القومي للبحوث خلال الأشهر الستة الأخيرة من العام ٢٠١٣م.

*	*	*

أمّا لماذا نصدّر العقول المفكرة ؟

فإنّ هنالك سببين رئيسيين لا ثالث لهما:

- **الأوّل**: غلق أبواب الحريّات في بلادنا.
- **الثاني**: فتح الأبواب لهم في البلاد الأجنبية.

أمّا الإغراءات المادية فإنّ لها تأثيراً ثانوياً على هجرة العقول المفكّرة، لأنّ الإنسان يبحث عن الحرية قبل أن يبحث عن الخبز، ويبحث عن ذاته قبل أن يبحث عن سعادتها، وينشدّ إلى أسرته وبلاده قبل أن ينجذب إلى البلاد الأجنبية، ولكن ماذا يفعل من تكون بلاده مسكونة بالغيلان؟ ويحكمها الطغاة؟ ألا يبحث عن مكانٍ آمن؟.

إذن الأمن قبل الحريّة، والحرية قبل الخبز، ومن هنا فإنّ الحضارات حينما تقوم في مكان ما بأسسها السليمة فهي تجذب إلى نفسها كلّ الباحثين عن الأمن والحرية والخبز، ومن ثمّ خيرات المناطق الأخرى.

* * *

كثيراً ما يطرح عليّ هذا السؤال: ألا ترون أنّ المنهج الغربي يصلح تطبيقه علينا في الشرق، فما دام أنّ هذا المنهج أعطى ثماراً جيّدة هناك، فلِمَ لا نطبقه عندنا مادمنا متخلفين، وبعبارة أخرى لماذا لا نستورد الحضارة الغربية؟

الجواب: لا شك أنّ هنالك جوانب إيجابية في هذه الحضارة، ولكن سلبياتها لا تقل عن إيجابياتها، ونحن في غنى عن استيراد السلبيات التي هي جزء لا يتجزأ من نتائج المنهج الغربي، ليس فقط لأنّ هذه السلبيات مضرّة بالإنسان، وبالبيئة، وبالبشرية عموماً، وإنّما لأنّ تلك السلبيات من دون وجود الإيجابيات الموجودة في الغرب ستقضي علينا.

وأساساً ليس من الحكمة أن نأتي بمنهج لا يمتّ إلينا بصلة، وإن كانت نتائجه جيدة في بيئة معينة ونطبقه في بيئة أخرى، لأنّ إيجابياته ستختفي وسلبياته ستظهر.

المهم لا بدّ أن نتعرف على بذور الحضارة، سواء الغربية أو غيرها، ثمّ نقوم بالاستفادة من البذور، لا أن نتشبّث بالقشور.

صدام الحضارات

هل الحضارات تتصادم؟

وهل أنّ إحداها تنفي الثانية، ولا يمكن أن تنمو حضارة إلّا على حساب حضارة أخرى؟

أم أنّ الحضارات تتكامل، وكلّ حضارة جديدة تأخذ ممّا سبقها، وتضيف إليها أشياء جديدة؟

هنالك نظرية أثارها صامويل هنتنغتون (Samuel Huntington) في عام ١٩٩٣م وسمّاه «صدام الحضارات»[١]، وتقول نظريّته: «إنّ الصراعات ما بعد الحرب الباردة لن تكون بين الدول القوميّة انطلاقاً من اختلافاتها السياسيّة والاقتصاديّة، بل ستكون الاختلافات الثقافيّة هي المحرك الرئيسيّ للنزاعات بين البشر في السنين القادمة».

وكانت نظريّة هذا الرجل ردّاً مباشراً على أطروحة تلميذه

(١) The Clash of Civilizations

فرانسيز فوكوياما (Francis Fukuyama) التي سمّاها «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»[١]، حيث كانت تقوم نظريّته على أساس أنّه بنهاية الحرب الباردة ستكون الديمقراطيّة الليبراليّة الشكل الغالب على الأنظمة حول العالم، وأنّه لن يكون هناك نظام آخر من الناحية السياسيّة إلّا النظام الغربي، ومن الناحية الاقتصادية إلّا اقتصاد السوق، لكن صامويل هنتنغتون اعتبر أنّ النزاع كان أيديولوجيّاً بين الرأسماليّة والشيوعيّة، ولكنّ النزاع القادم سيتّخذ شكلاً مختلفاً، ويكون بين حضارات محتملة وهي:

١. الحضارة الغربيّة.
٢. الحضارة اللاتينيّة.
٣. الحضارة اليابانيّة.
٤. الحضارة الصينيّة.
٥. الحضارة الهنديّة.
٦. الحضارة الإسلاميّة.
٧. الحضارة الأرثوذكسيّة.
٨. الحضارة الإفريقيّة.
٩. الحضارة البوذيّة.

(١) The End of History And the Last Man

وتقوم نظرية الرجل على أنّ الخلافات الثقافيّة -وليست الأيديولوجيّة أو القوميّة- هي التي ستكون بؤرة الحروب القادمة، وأنّ الاختلافات أو الخصائص الثقافيّة لا يمكن تغييرها، مثلما يمكن تغيير الانتماءات الأيديولوجيّة، فالرجل ربما يغيّر انتمائه من شيوعيّ إلى ليبراليّ، ولكن لا يمكن للروسيّ مثلاً أن يصبح فارسيّاً ، وفي الصراعات الأيدولوجيّة يمكن للناس أن يختاروا الجانب الذي يؤيّدونه، وهو ما لا يحدث في الصراع الثقافيّ أو الحضاريّ، ونفس المنطق في نظره ينطبق على الدين، فبإمكان المرء أن يحمل جنسيّتين فرنسيّة وجزائريّة مثلاً، ولكن لا يمكن أن يكون مسلماً وكاثوليكياً في آن واحد.

غير أنّ الرجل يركز في نظريّته على الإسلام، ويدّعي بأنّ حدود الإسلام دمويّة، وكذلك مناطقه الداخليّة، مشيراً إلى صراعات المسلمين مع الأديان الأخرى مثلما حدث في السودان في الصراع بين الجنوب والشمال، والهند وباكستان، والصراعات داخل الهند نفسها بين المسلمين والهندوس، ويحدّد الصراع الحقيقيّ بين العالم المسيحيّ بقيمه من جهة، والعالم الإسلامي من جهة أخرى، ويستشهد بالغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠م، و يدّعي بأنّ

شعبيّة صدام حسين كانت مرتفعة في أوساط الشعوب العربيّة، برغم أنّ معظم الأنظمة لم تؤيّد موقفه، وانضمّت لتحالف دوليّ بقيادة الولايات المتحدّة لتحرير الكويت، وأنّ صدام حسين استعمل خطاباً شعبويّاً صوّر فيه الحرب بأنّها حرب بين حضارتين مختلفتين، وادّعى بأنّ البعض رأى أنّ التحالف ضدّ صدام حسين إنّما كان تحالفاً غربيّاً ضدّ الإسلام.

غير أنّ الرجل لا يستشهد بالحروب التي خاضها الغرب ضدّ كثير من المناطق بدوافع مماثلة، حتى أنّ الحرب العالميّة الأولى والثانية كانت حرباً غربيّة، وقتل فيها أكثر من ٧٧ مليون إنسان، هذه الحدود الدمويّة لا يأخذها الرجل بعين الاعتبار، إنّما يذهب لغزو صدام حسين للكويت، ويستشهد بما قاله صدّام، وهو مجرّد ادّعاء ادعاه طاغوت علمانيّ بعثيّ، حيث ادّعى بأنّ التحالف الغربي ضدّه هو تحالف ضدّ الإسلام، وينسى الرجل أو يتناسى دور الغرب في استعمار الشعوب بأكملها، وما ارتكبوه من مجازر بحقّ الأفريقيّين، وبحقّ الهنود، وبحقّ الجزائريّين الذين كانو يقاومون الاحتلال، كلّ ذلك لا يذكره الرجل، أو يتناساه، ثمّ يقول: إنّ قيم الديمقراطيّة، وحقوق الإنسانّ، والحريّة، والعلمانيّة، والدستور،

وإن كانت قيماً عالميّة تستفيد منها البشرية جمعاء، إلّا أنّ ذلك لا يعتبر منطقيّا في عقليّة المسلمين.

ثمّ يحدّد الرجل سيناريوهات الصراع بين الغرب ومن سمّاهم بآخرين، وعلى الأكثر يقصد المسلمين، بثلاث سيناريوهات:

- **الأوّل**: أن تحاول الدول الإسلاميّة عزل نفسها، وحماية مجتمعاتها من الفساد الغربي، والانعزال عن الساحة الدوليّة، ولكن ثمن ذلك باهظ، وليست لديها القدرة على تنفيذ ذلك.
- **السيناريو الثاني**: أن تعمل تلك الدول بالتّحالف مع الغرب، وتغريب مجتمعاتها، وتفرض الثقافة الغربيّة على أفرادها كما فعلت تركيا في زمن مصطفى أتاتورك.
- **السيناريو الثالث**: هو أن تتحالف تلك الدول مع حضارات أخرى غير غربيّة كالبوذيّة، وتسعى لتشكيل قوّة اقتصاديّة وعسكريّة معها بغرض تحقيق التوازن أمام الدول الغربيّة.

ثمّ ينتهي إلى القول بأنّ الصراع القادم سيكون صراعاً ثقافيّاً وليس صراعاً على مصالح ومنافع، وسيكون بين الغرب والآخرين، و يقصد بين الغرب والدول ذات الأغلبيّة المسلمة.

وقبل الدخول في تفاصيل هذه النظريّة لابدّ من بيان أنّ الرجل

كان مستشاراً للرئيس الأمريكيّ الأسبق، وكان موظّفاً في وزارة الخارجيّة الأمريكيّة، فهو في الحقيقة ينظّر لليمين الأمريكيّ، ومن ثمّ لا يمكن أخذ ما توصّل إليه كأمر علميّ محايد؛ لأنّ العلم -مع الأسف- في الغرب لا يأخذ شكلاً محايداً، فالعلم عندهم في خدمة السياسة، أو في خدمة الاقتصاد، أو في خدمتهما معاً.

فمثلاً إحدى الشركات تنتج منتجاً معيّناً، ثمّ تستخدم مجموعة من العلماء لكي يجعلوا ذلك المنتج من الأمور الضروريّة للإنسان، فإذا أقام أحدهم مصنعاً لتعليب المياه، فهو يستخدم مجموعة من العلماء لكي يبيّنوا للناس أنّ شرب ١٠ لترات من الماء أمر ضروريّ لصحّة الإنسان، وهكذا في بقيّة الأمور.

كذلك فإنّ الموظّفين في الخارجيّة الأمريكيّة يوظّفون ثقافتهم لتبرير سياسات الدولة العميقة عندهم.

لقد كان صامويل هنتنغتون أستاذاً جامعيّاً يدرّس في جامعة هارفارد لمدّة تزيد عن الخمسين عاماً، وقد ولد في مدينة نيويورك في الثامن عشر من نيسان/ أبريل عام ١٩٢٧م، وكان والده يعمل كناشرٍ في صحيفة مختصّة في الترويج للفنادق، وكانت أمّه كاتبة قصصيّة.

وتولّى مجموعة من المناصب منها منصب مدير مساعد في مركز الدراسات للحرب والسلم، في الفترة ما بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٢م، وتولّى منصب رئيس الجمعيّة الأمريكيّة للعلوم السياسيّة من عام ١٩٨٦م حتى عام ١٩٨٧م، وأيضاً ساهم في إصدار مجلة فورين بوليسي (Foreign Policy Magazine)، وشغل منصب مدير معهد الدراسات الذي أسّسه معهد جون أولان، وكذلك كان مديراً لأكاديميّة هارفارد للدراسات الدوليّة، ومستشاراً في السياسة الخارجيّة في حملة هوبرت الرئاسيّة للانتخابات في عام ١٩٦٨م، وتولى منصب مدير التخطيط الأمنيّ بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٧٨م في مجلس الأمن القوميّ، ومثل هذا الرجل لا يتوقع أن يكون محايداً، وإنّما هو منظّر للسياسة الأمريكيّة، خاصّة لليمين الأمريكيّ.

ونلخّص الإشكال على هذه النظريّة في النقطة التالية:

إنّ الرجل يتعامل مع الظواهر السياسيّة كمسلّمات جوهريّة في ثقافات الشعوب، ويتجاهل حركات البشر المؤثّرة على عمليّة تبلور الهويّات، فهي نظريّة سطحيّة بامتياز، و تلقى هذه النظريّة رواجاً لدى الحركات الإسلاميّة المتطرّفة؛ لأنّهم أساساً يريدون

تغذية فكرة العداء مع غيرهم، ويستفيدون من نظريّة صدام الحضارات.

ويتجاهل الرجل التاريخ الطويل الذي مرّت به أوروبا، ويريد أن يجعل من الحضارات والهويّات كيانات مغلقة تمّ تطهيرها من التيارات التي حرّكت وتحرّك التاريخ البشريّ، ثمّ إنّه يرى أنّ محور الحضارة هي أمريكا، فإذا تقدّمت جماعة إلى أمريكا، وتحالفت معها فهي جماعة جيّدة، وإذا خالفت سياساتها فهي جماعة مرفوضة، وتريد تقويض الحضارة البشريّة القائمة، وواضح أنّ ما سمّاه بصدام الحضارات نظريّة غير دقيقة إطلاقاً.

ومن الأدلّة التي يمكن ذكرها ضدّ نظريّة «صِدام الحضارات» أنّ كوريا الجنوبيّة، وكوريا الشماليّة، وتايوان، والصين، وسنغافورة، وفيتنام، واليابان، كلّها دول متقاربة ثقافيّاً فهي تعتمد على البوذيّة، ولكنّها متنافرة جدّاً، والديمقراطيّات الرأسماليّة المزدهرة من كوريا الجنوبيّة إلى تايوان، تشكّل انتهاكاً صارخاً لمنطق الرجل على ما نراه، فلا يوجد أيّ سبب لترجيح تحوّل كوريا الجنوبيّة من دولة رأسماليّة ديمقراطيّة مزدهرة إلى كوريا الشماليّة بمجرّد أنّهم في الحقيقة شعب واحد، الاختلافات

والتحوّلات الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي مرّت بها كوريا الجنوبيّة تجعل الالتقاء مع كوريا الشماليّة صعباً، طالما بقي النظام في كوريا الشماليّة يعتمد على الحزب الواحد والشخص الواحد.

ثمّ تعبير: إنّ الولايات المتحدة هي أمّة مسيحيّة غير صحيح، وغير دقيق، فالأمريكيّون يميلون إلى أن يكونوا أكثر تديّناً مقارنة بالأوربيين مثلاً، ولكن الممارسات الشخصيّة لا تجعل الدولة تقوم على أساس مسيحيّ، خاصّة وإنّ الإصلاح البروتستاني لعب دوراً كبيراً في تأسيس الولايات المتحدة، وكان جزءاً محوريّاً من القوميّة الأمريكيّة خلال السنين الأولى، وكانت هنالك مناقشات مجتمعيّة ونخبويّة متعلّقة بذكر الربّ في الدستور، ولكن الولايات المتحدة الأمريكيّة لاتُعتبر دولة مسيحيّة، ومن ثمّ فإنّ صراعها مع بقية الدول هو صراع اقتصاديّ، وليس صراعاً ثقافيّاً كما يقول صاحب كتاب «صدام الحضارات».

إنّ صامويل هنتنغتون لا يريد أن يرى حضارة في مقابل الحضارة القائمة، ولذلك فإنّه يحاول أن يجعل الحضارة الغربيّة محوراً وميزاناً، ثمّ يتحدّث عن ظهور حضارات أخرى وكأنّها شذوذ، وهي في نظره في تصادم مع حضارته، فمثلاً يتحدّث عن

تأثير الغرب النسبيّ الذي بدأ بالتناقص، فهو يرى أنّ الحضارات الآسيويّة أصبحت ذات قوّة أكبر في مختلف المجالات الاقتصاديّة والسياسيّة وحتى العسكريّة، وأنّ العالم الإسلاميّ أصبح قوّة حقيقيّة، ويعتبر هذا الأمر عامل تهديد للحضارات التي تجاورها على حدّ رأيه.

وقد قدّم الرجل مجموعة من الإحصاءات التي تُظهر تناقص الأوروبيّين بالنسبة للعدد الإجماليّ لسكّان العالم، وفي المقابل تزايد عدد الآسيويّين والمسلمين.

وصعود الإسلام من الأمور التي تحدّث عنها الرجل في كتابه صراع الحضارات، وقد ذكر الامتداد الإسلاميّ من الناحية الجغرافيّة، وكذلك من الناحية السكّانيّة، حيث وصلت مساحة البلاد الإسلاميّة إلى ما يقرب من ٢١٪ من مساحة المعمورة في الأرض، ووصل عدد المسلمين إلى أكثر من مليار نسمة، كما أنّهم سيطروا على نسبة كبيرة من الاحتياطيّ العالميّ للنفط والغاز.

والسؤال هو التالي: إذا زاد عدد المسلمين فأين تكمن المشكلة؟

المشكلة في نظر هنتنغتون هي في ضرورة أن يتناقص عدد المسلمين حتّى تبقى الحضارة الغربيّة مسيطرة، ويتحدّث عن

السيطرة على النفط والغاز، مع أنّ النفط والغاز مواهب إلهيّة لهذه الأرض وللمسلمين، ما المشكلة إذا كانت آبار البترول في بلاد المسلمين؟ مع أنّ النفط عادةً ما هو في خدمة الغربيّين، ويتحدّث عن انتشار الإسلام وكأنّه انتشار للأوبئة، حتّى في داخل الولايات المتحدة الأمريكيّة، فما هو ذنب الناس إذا آمنوا بالإسلام، سواء كانوا أمريكيّين، أو أوروبيّين، أو آسيويّين؟

لماذا نتّهم من يصبح مسلماً بأنّه عدو، ولا بدّ من محاربته، واقتلاعه من جذوره؟

وفي الحقيقة فإنّ صاحب كتاب «صدام الحضارات» لم يأتِ بشيء جديد، فقد كانت هذه النظريّة موجودة قديماً عند جمع من الأكاديميّين في الغرب والشرق، وما فعله صامويل هنتنغتون هو إعادة صياغة أفكارهم بطريقة جديدة.

الرجل يصنّف بعض الحضارات على أساس دينيّ كالحضارة الإسلاميّة، والبعض الآخر على أساس جغرافيّ كالحضارة الغربيّة، ويتجاهل الصراع الموجود بين الولايات المتحدة الأمريكيّة واليابان على أساس الاقتصاد، وليس الاختلاف الثقافيّ.

ثمّ إنّ الرجل يستشهد بحادثة معيّنة، أو بجماعة متطرّفة هنا أو

هناك لكي يصيغ على أساسها نظريّته، فمثلاً أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، يعتبرها مؤامرة إسلاميّة على الغرب، مع أنّها كانت من فعل رجل شاذ كان يؤمن بالأفكار الوهابيّة التي لا تمثّل الإسلام ولا المسلمين، لكنّه يُصوّر كلّ ذلك وكأنّ العالم الإسلاميّ قد دخل في حرب ضدّ العالم المسيحيّ، ويرى أنّ هذه المواجهة لا تجد حلاً إلّا في انتصار أحد الأطراف على حساب الآخر.

ونظرية المؤامرة الإسلاميّة، والقطيعة بين الحضارات أعطت مفهوماً شعاريّاً للعالم، ففي نظر أمثال هنتنغتون ليس صراعاً بين قوى عظمى تنشطها الأيديولوجيّة المضادّة، ولكن كحرب بين حضارتين، أي بين الحضارة المتقدّمة وأخرى هي الحضارة البدائيّة البربريّة، ويقصد الرجل بذلك أنّ الإسلام غير قابل للتمدّن.

وحقّاً إنّ صامويل هنتنغتون من الذين صاغوا أيديولوجيّة فاشيّة، لكنّها بصيغة حديثة، وهي مرتبطة بالحاضر.

مشاكل الأمّة

تتلخّص مشاكل الأمّة الرئيسية في ثلاث:

- الانحطاط الحضاري..
- والتجزئة المستمرة..
- والتبعيّة للأجنبي..

وهي تدور في حلقات مفرغة يؤدي بعضها إلى بعض؛ فالانحطاط يؤدي -بالضرورة- إلى التجزئة، والتجزئة تؤدي إلى التبعيّة، والتبعيّة بدورها تؤدي إلى الانحطاط، والانحطاط يؤدي إلى التجزئة، وهكذا دواليك..

وللتخلص من الانحطاط نحن بحاجة إلى ثلاث نهضات:

- **الأولى**: النهضة الثقافية.
- **الثانية**: النهضة العلمية.
- **الثالثة**: النهضة الصناعية.

وهي نهضات ثلاث؛ بعضها متداخل في بعض، وبعضها يؤدي

إلى بعض؛ فبمقدار ما نمتلك من الوعي يكون اهتمامنا بالعلم، وبمقدار ما نمتلك من العلم تكون قدرتنا على التقدم الصناعي.

أمّا بالنسبة إلى التجزئة فللتخلص منها نحن بحاجة إلى ثلاثة أمور:

- **أوّلاً**: الحرية.
- **ثانياً**: نظام الحكم الصالح.
- **ثالثاً**: العدالة الاجتماعية.

وهي كسابقاتها متداخلة الحلقات، بعضها يؤدي إلى بعض، وغياب واحدة منها يؤدي إلى غياب الأخريين؛ فبدون الحرية لن يكون نظام حكم صالح، وبدون النظام الصالح لن تكون عدالة ولا حرية وهكذا..

وللتخلص من التبعيّة نحن بحاجة إلى أمور ثلاث:

- **أوّلاً**: العودة إلى الجذور.
- **ثانياً**: التنمية.
- **ثالثاً**: وحدة الكلمة.

فلا استقلال بدون العودة إلى التاريخ؛ واستنباط حضارتنا

بالاعتماد على كلّ من ثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا السليمة من جهة، والاستفادة من الحضارات القائمة من جهة أخرى.

الحضارة مثل شجرة تحتاج إلى جذور في الأرض، لكي تمتص من عناصر الأرض ما ينفع، وتحتاج إلى السماء والفضاء لكي تمتص أشعة الشمس، وكل ما هو موجود خارج التربة..

الحضارة جذورها في التاريخ، ولكنها لا تستطيع أن تستفيد من التاريخ وحده، بل لا بدّ من الاستفادة من الحضارات القائمة، وهي بالنسبة إلى الحضارة مثل أشعة الشمس بالنسبة إلى الشجرة، ومثل الهواء لها.

أمّا التنمية فهي مسألة أساسية لا بدّ من الاهتمام بها بدل صرف المبالغ على أمور استهلاكيّة تمر ولا تبقى، وتستهلك على ما نمتلك من المال؛ التنمية بحث عميق ومعقد يحتاج إلى وضع خطط سليمة من قبل خبراء في هذا المجال.

أمّا الوحدة فهي بلا شك قوّة، ومن ثمّ فهي حُلم الشعوب، ولا بدّ من بذل المحاولات لتحقيقها، فمهما فشلنا في تحقيق واحدة منها، حاولنا الأمر الآخر.

وبسبب وجود الترابط بين كلّ هذه الأمور لا بدّ من معالجة

المشاكل كلّها؛ أي مشاكل الانحطاط والتجزئة والتبعيّة، ومن جميع الأبعاد، فبدون أن يكون هناك اهتمام بكل الأبعاد؛ لا يمكن التخلص من هذه المشاكل.

لقد جرت محاولات جادة من أجل الخلاص من كلّ واحدة من هذه الأمور بشكل منفرد، ولكن لأنّها كانت محاولات تجزيئية؛ تأخذ مثلاً مشكلة التنمية فقط، وتحاول حلها بدون عودة إلى الجذور، وبدون الوحدة، وبدون النهضات العلمية والثقافية والصناعية؛ كان ذلك يؤدي إلى الفشل.

لقد حاول البعض -مثلاً- التخلص من التبعية، ولكن في ظل الاستبداد؛ فكان الإخفاق هو النتيجة.

وإذا كان لا بدّ من أن نبدأ من نقطة ما، فلا بدّ من أن نبدأ من الحرية؛ لأنّ كلّ نهضة من غير وجود حرية حقيقية تؤدي إلى الانتكاسة ولا شكّ؛ فالله تعالى لم يرض عبودية أحد من عباده لأحد من خلقه، ولذلك نجد أنّ الأحرار لا يفرّطون في حرياتهم لأنّهم يعلمون أنّ ثمنها كبير وتأثيرها في البناء الحضاري عظيم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كُلُّ مَا حَمَلَتَ عَلَيـهِ الـحُرَّ احتَمَلَهُ وَ رَآهُ زِيَادةً فِي شَرَفِهِ إِلَّا مَا حَطَّهُ جُزءاً مِنْ**

حُرِّيَتِـهِ فَإِنَّهُ يَأبَـاهُ وَ لَا يُـجِيبُ إِلَيهِ»[١]

ومع وجود الاستبداد ومصادرة الحريات، لن تكون هنالك عدالة، وبدون عدالة لن تكون هنالك تنمية، وبدون تنمية لن تكون هنالك وحدة حقيقية، ولا استقلال، ولا تقدّم..

إنّ الحرية هي نقطة البدء في حل مشاكل الأمّة الرئيسية: الانحطاط، والتجزئة، والتبعيّة.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص: ٢٧٩.

أين تكمن المشكلة؟
وأين يكمن الحل؟

حينما يكون هنالك خطأ في مكان معيّن، فلا بدّ من معالجته في ذلك المكان، وإلّا فلا ينفع أن تعالج المشكلة في غير مكانها.

فلو افترضنا أنّك أصبت بوجع في الرأس، فهل ينفعك أن تفرك أصابع يديك بمادة مسكّنة؟

وكما في جسم الإنسان كذلك في جسم الأمّة، فإذا كانت الأمّة مصابة في روحيتها، فهل ينفع تغيير بعض الشكليّات؟

لا شك أنّ للشكليات تأثيرها، وللقضية الإدارية تأثيرها، ولنوعية الآليات التي نستخدمها تأثيرها أيضاً، ولكن إذا كانت المشكلة في الروحية، فلن ينفع تغيير الشكليّات، أوالآليات، أوالإداريات.

مثلاً: يتساءل البعض هل المشكلة في النظام الملكي، بحيث لو استبدلناه بنظام جمهوري تغيرت أوضاعنا إلى الأصلح؟

ويجيب البعض بنعم، كأنّ المشكلة هي في الإطار العام للنظام، بينما المشكلة الحقيقة تكمن في الوضعية.

غير أنّ كلا النظامين الملكي والجمهوري في بلادنا -لا أقول ذلك دفاعاً عن النظام الملكي ولا إدانة للنظام الجمهوري- مجرد شكل في الوضع القائم، وإطار مفرغ من محتواه الحقيقي يستخدمه كلّ حاكم حسب حاجاته ورغباته، بينما المشكلة في حقيقة النظام لا في شكله، فرئيس الجمهورية المستبد لا يختلف عن الملك المستبد.

هنالك مشكلتان رئيسيتان هما:

- روحية الخضوع في المحكوم..
- وروحية الاستبداد في الحاكم..

فنفوس الكثيرين تحكمها روحية النهب، فإذا كان الحاكم ملكاً نهب الناس، وقتلهم، وإذا كان رئيساً للجمهورية نهبهم وقتلهم أيضاً، المشكلة في روحية الاستئثار ولا فرق في الأسماء، أو أن يكون الحاكم ملكاً يستأثر أو رئيساً للجمهورية يفعل ذلك، ولا فرق في الأنظمة سواءً سميناها تقدمية أم رجعية، وكما يقول الشهيد السيد حسن الشيرازي:

والاشـــــتراكيون أضحــوا بــروجُوا

زِيـــيّــن في جــمع الــثراء سواءُ

إنّ الذي يستأثر فيما الناس فيه سواسية يكون ظالماً، سواءً كانت اللافتة المعلقة فوق رأسه لافتةً ملكية أم لافتةً جمهورية، وسواءً كانت الألقاب التي تسبق اسمه تختص بالملوك، أم تختص برؤساء الجمهوريات، ولا فرق أن يكون على رأسه العقال، أو التاج أو أيّ شيء آخر.

وفي الأمّة هنالك روحية الخضوع، أي روحية القبول بالدونيّة، وتقبّل الظلم، والسكوت عن الظالم..

وهكذا فإنّ المشكلة هي مشكلة روحية، ولكي تتبدّل الأوضاع لا بدّ أن تتبدل هذه الروحية كي تتغير الأوضاع في كلّ مكان.

إنّ الوضع يشبه مجموعة أسلاك ليس فيها طاقة، فكل ما بدّلت هذه الأسلاك وغيّرتها لن تحصل من ورائها على الإنارة مثلاً، فالطاقة الكهربائية منقطعة عنها، وأي إصلاح لا يتناول دفع القوّة الكهربائية في الأسلاك لن يصلح الخلل، ولن تفيدك الشركة المصنعة للأسلاك أكانت شركة مشهورة وذات إنتاج متين، أو أنّها كانت شركة ذات إنتاج سيء.

المشكلة أنّ الأمّة لا تملك الطاقة الحضارية التي تدفعها باتجاه الأصلح، فلا تمتلك روحية النهضة، وقبول الحق، وفرض الحق

على من لا يقبله، سواءً كان حاكماً أم محكوماً، فرداً أم جماعةً، ومع قطع النظر عن الأسماء..

لقد عمل رسول الله ﷺ حينما بُعث إلى العرب في عصر الجاهلية على تغيير روحياتهم، وبناء نفوسهم؛ فدفع العبيد وشجعهم على التحرر من الخضوع والعبودية لأسيادهم، وكذلك أخذ بأيدي الأسياد وخلّصهم من روحيّة الاستعلاء واستعباد الناس، وبذلك كان ﷺ ينقذهم من التسافل في درك الجاهلية، ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[1]، ولولا رسول الله ﷺ لاستمر هؤلاء في جهلهم وغيّهم، ولما استطاعوا أن يبنوا حضارة عريقة.

إنّ روحية الاستبداد من جهة، وروحية الخضوع والخنوع من جهة أخرى هما مدمران للحضارة والبناء الحضاري، والتخلص منهما معاً كفيل بإعادة تقويم البناء الحضاري..

هنا المشكلة، ومن هنا يبدأ الحل، و﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

الحضارة حينما تنسى اللّه

الحضارة الغربية التي نعاصرها، ونعايشها، ونتمتع ببعض نتائجها، ونعاني من كثير من آثارها، هذه الحضارة لم تُبنَ على منهج السماء، ولذلك فإنّ أساسها البنيوي خالي من تقوى الله.

ومن هنا فليس مستغرباً أن نرى بعض النتائج السيئة التي تفرزها على البشريّة، ولن يكون مستغرباً أيضاً أن نراها في يوم من الأيام تنهار.

يقول عزوجل: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1]

وإذا كان كلّ شيء يُعرف بثمرته، فلنا أن نتساءل في المجال الأخلاقي والإنساني: أين ثمار هذه الحضارة؟

لا تقل إنّ الطائرات النفاثة، والسفن العابرة للقارات،

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٤.

وأجهزة الحاسوب، ووسائل الترفيه، والأجهزة الذكيّة، هي نتاج هذه الحضارة، لأنّ الكلام ليس حول النتائج المادية في مجال الصناعات، وإنّما الكلام حول النتائج الإنسانية في عالم البشر.

و بالطبع فإنّنا لا نقلّل من القيمة الحضارية للتقدم الصناعي، فلسنا ممن يقول: إنّ ركوب الحمار أفضل من ركوب الطائرة، وإنّ المكنسة اليدوية أفضل من المكنسة الكهربائية، وإنّ حياة الإنسان في الجانب المادي منه في القرون الوسطى، كانت أفضل من حياته الآن.

ولكننا نقول: إنّ ما لم تهتم به هذه الحضارة كان أهم مما اهتمت به، فهي قد أهملت الأخلاق والمثل والقيم التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، بل وحوّلت كلّ ما يرتبط بالرسالات السماوية إلى سلعة مادية، ثمّ تعاملت معها على هذا الأساس، فإذا كان هنالك حديث عن السيّد المسيح عليه السلام فلأن هذا الحديث يدرّ عليهم أموالاً، حيث تُباع بضائعهم بالمليارات في أيام ميلاد السيّد المسيح عليه السلام «الكرسمس» ورأس السنة الميلادية، وتقدم في السنة الجديدة صناعات باعتبارها آخر ما أنتجه الإنسان، وهكذا فإن مناهج الأنبياء عليهم السلام لم تدخل في الدورة الحضارية القائمة الآن.

وإذا حاولنا أن نبحث عن نتاجهم الحضاري فإنّنا نجد أنّ

هذه الحضارة تهتم بجوانب الترفيه لطبقات معينة من البشر، دون مراعاة للقيم والمثل الإنسانية التي يؤمن بها جميع البشر، وبشعارات مثل تحرير الإنسان يتم استعباد البشر وتحويلهم إلى سلع استهلاكية.

ثمّ لنا أن نتساءل أين القدوات والنماذج المشرقة التي أنتجتها هذه الحضارة؟!

نحن نجد النماذج المقلوبة التي يُروج لها باسم التقدم والحضارية، فمثلاً نجد الترويج للمغنيات لديهم كـ«مادونا» والتي يعرف الجميع، أيّ مثلٍ تمثله هذه المرأة الماجنة للمرأة في عالم اليوم، وأيضاً «مايكل جاكسون» المتهم بسوء استخدام علاقاته بالأطفال، وتعرضه الجنسي لهم.

ففي النساء تلك، وفي الرجال هذا، لا السيّدة العذراء مريم عليها السلام ولا السيّد المسيح عليه السلام.

وفي المجال السياسي فإن النموذج الذي قدمته الحضارة الغربية في صورة «هتلر» لم يكن هو الآخر مشرّفاً ولايمكن الاعتزاز به، وإن كان الغربيون يتملصون من «هتلر» إلّا أنّه بلا شك كان من منتجات الحضارة الغربية.

والذين أتوا من بعده هنا وهناك لم يكونوا أفضل منه، وإن كانوا أعداءً له، فإذا كان عدد الذين قُتلوا في الحرب العالمية الثانية يتراوح بين الـ ٧٠ إلى ٨٥ مليون إنسان، فإن أكثر من ١٠٠ حرب أُشعلت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر حسب إحصاءات الأمّم المتحدة، وهذا يعني أنّ جلّ ما فعلته الحضارة الغربية من بعد هتلر هو أنّها رمت بنيران الحروب بعيداً عن عالمهم إلى العالم الثالث، وأبعدت شبحها عن القارة الأمريكية والأوروبية فقط، ولا شك أنّ هذه الحضارة هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، وعن الحروب التي تلتهما.

أمّا في مجال العلاقات الاجتماعية فإنّ من نماذج ما في هذه الحضارة تلك الحادثة الفظيعة عام ١٩٩٣م والتي أودت بحياة طفل في الثانية من عمره اسمه «جيمس بولجر»، حيث اختطفه اثنان من الأطفال الصغار: «جون فينابليس» و«روبرت طومسون» وعمرهما آنذاك عشر سنوات فقط، لقد اختطفا الطفل الصغير من مركز للتسوق في بوتيل بليفربول، وأخذا يضربانه وهم لا يعرفانه بالطبع، وإنّما تلذذاً بضربه فقط، فأثخناه بالجراح

وعذباه، وفي النهاية، أسقطا عليه قطعة حديدية يبلغ وزنها ١٠ كيلوغرامات فمات الطفل، ثمّ تأكدا من موته عبر وضع آذانهم على قلبه، حتّى إذا توقف قلبه رموه على سكة الحديد فجاء القطار وقسّمهُ نصفين[١].

تُرى أية تربية هذه التي تؤدي إلى أمثال هذا الفعل الشنيع؟

أيّة حضارة هذه التي يكون مثلها الأعلى المغني «مايكل جاكسون»، والمغنية «مادونا»، ويرتكب أطفالها جريمة قتل شنيعة بحقّ طفل بريء؟

إنّ هذه الحضارة حينما نسيت ربّها سقطت في مستنقع الرذيلة، لقد ﴿**نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾[٢]، ولذلك فمثل هذه الحضارة بحاجة إلى مراجعة شاملة، وإعادة للنظر في كلّ الأسس والقواعد التي تقوم عليها.

إنّ هذين الطفلين تأثرا بفيلم شاهداه على شاشة التلفاز، فمشاهدة الأفلام الغربية التي تمجّد القتلة، هي التي تؤدي إلى ارتكاب الجرائم. تقول الإحصاءات أنّ ما يشاهده الطفل في

(١) اشتهرت هذه الحادثة كثيراً وكتبت عنها مختلف الصحف العالمية، وحصلت ضجة كبيرة حولها في الغرب وحول المحاكمة التي حصلت لهما.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٩.

أمريكا خلال عشر سنوات من عمره هو أحد عشر ألف لقطة من لقطات العنف، فأيّة أخلاقية هذه التي تنتج مثل هذه الأفلام وتعرضها على الناس؟

لماذا تحاول هذه الحضارة التملص من النتائج البشعة التي تترتب على نسيان منهج السماء؟.

حينما نعود إلى أحاديث أهل البيت عليهم السلام نجد أنّها تشير في عدة مواضع إلى هذه النقطة المهمّة، وكيف أنّ نسيان الله تعالى وترك دينه وتعاليمه سبب لانهيار الحضارات وزوالها؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَيْثُ مَا عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي، وَلَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ ذلِك**»[1].

إنّ الحضارة اليوم مدعوة للعودة إلى الله تعالى، والتمسك بتعاليمه الحقّة، حتّى تستطيع الخروج من النفق المظلم الذي تسير فيه.

(١) الكافي، ج٩، ص:٤٨٦- ٤٨٧.

رجال الأمّة الناهضة

الأمّم على ثلاثة أصناف:

الأمّة الناهضة..

والأمّة النائمة..

وما بينهما؛ أي الأمّة التي هي نائمة وتحاول أن تنهض، أو الأمّة التي هي ناهضة، ولكنّها تسير باتجاه النوم.

من علامات الأمّة الناهضة أنّ رجالها وقادتها لهم نشاط وحركة وهم أحياء، فأنت تسمع عن نشاطهم ومواقفهم وإنجازاتهم ما داموا في سن النضج.

ولكنّ الأمّة النائمة لا تسمع عن رجالها إلّا بعد موتهم، فكأنّ الموت هو أعظم إنجاز يحقّقه رجال الأمّة النائمة؛ فلا تسمع عن أحدهم خبراً، ولا موقفاً، ولا إنجازاً، ولكنّه إذا مات سمعت عنه في كلّ مكان. فالباكون له كثيرون، والمترحمون عليه أكثر، ولكن لا ترى له أتباعاً في حياته، لأنّه إمّا أنّه لم يكن يمتلك في حياته موقفاً

ولم تكن له إنجازات، أو أنّ الناس لا يكتشفون مواقفه وإنجازاته إلّا بعد موته.

نعم.. قد يعتبر الكثيرون أنفسهم أتباعاً له بعد موته، ولكنّها تبعية لا تسمن ولا تغني من جوع.

إنّ رجال الأمّة النائمة هم جزء من التاريخ وهم أحياء، وبالموت يتمّ تحنيطهم، ثمّ يبدأ أتباعهم بالتباكي عليهم لفترة طويلة من الزمن.

أمّا الأمّة الناهضة فهي تلفظ كلّ من لا يحرّكها ولا يتحرك بها، مهما كان موقعه، وإذا فشل أيّ شخص -أياً كان موقعه- فإنّ الأمّة تستبدل به غيره.

يقول ربّنا عزّ وجلّ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[1].

فالأمّة الناهضة إذا ارتدّ منها أحد، سواء كان في موقع القيادة أم في القاعدة، فإنّها ستلفظه وتستبدل به غيره.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

أمّا الأمّة النائمة فإنّ رجالها هم كالتماثيل التي لا تجسّ ولا تمس، ولا يمكن نقدها وتقييمها، وإذا أصبح لها قائد فهو لا يتغيّر ولا يتبدّل، والموت وحده هو الذي يحجزه عنهم.

والمشكلة هي أن التخلف الذي تعاني منه الأمّة النائمة يُتوارث، فهناك علاقة وثيقة بين حالة الانحطاط المتوالدة والمؤثرات البيئية والاجتماعية للأمم؛ فالأمّة الصالحة تنشئ أبناءً صالحين، أمّا التي فسدت فهي لا تلد إلّا فاسداً.

وحينما نتحدث عن الأمّة الناهضة أو السائرة نحو النهوض فإنّنا بلاشك نتحدث عن رجال عظماء يحملون راية النهوض والعمل في أمتهم، وإلّا فإنّ الأمّة بدون رجالها لا تستطيع النهوض والتقدّم، وهكذا هم الرساليون في مجتمعاتهم فاعلون وعاملون، قد حملوا على عاتقهم ثقل المسؤولية، ونهضوا بأعباء الأمّة، وساروا بدون كلل أو ملل نحو حل مشاكل الناس.

قال تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[1].

ولذلك فإنّ هؤلاء الرجال هم الذين يصنعون الحضارات،

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

وبهم تُبنى الأمّم، وباتّباعهم تزدهر الدول.

وتاريخنا مليء بالنماذج المشرقة من هؤلاء الرجال الذين أنقذوا الأمّة وحافظوا على البناء الحضاري فيها، وهنا نذكر رجلين كان لهما التأثير الكبير والبالغ في الأمّة؛ الأول هو المجدد السيد محمد حسن الشيرازي قدس سره المعروف بصاحب ثورة التنباك، والثاني هو المفكر السيد جمال الدين الأفغاني:

ولد المجدد السيد محمد حسن الشيرازي قدس سره في ١٥ جمادي الأولى سنة ١٢٣٠هـ، وتوفي عام ١٣١٢هـ. هاجر الى مدينة النجف الأشرف سنة ١٢٥٩هـ، ثمّ إلى مدينة سامراء المشرفة عام ١٢٩١هـ.

آلت إليه المرجعية سنة ١٢٨١هـ بعد وفاة أستاذه الفقيه الشيخ مرتضى الأنصاري قدّس سرّه.

قارع الاستعمار البريطاني في إيران وقاد ثورة التنباك بإصدار فتواه المشهورة بتحريم استخدام التنباك، حيث أدّت الى إفلاس الشركة البريطانية المتاجرة بالتبغ، والتي كانت غطاء التغلغل في إيران والسيطرة على الحكم والاقتصاد في سنة ١٨٩١م.

فقد وافقت حكومة الشاه ناصر الدين القاجارية سنة ١٣١٢هـ

على منح امتياز زراعة وتجارة التبغ في إيران للشركة البريطانية، وكان ذلك بّوابة لدخول الاستعمار إلى البلاد وفرض الهيمنة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة على المسلمين في إيران، وغيرها من بلدان المنطقة.

بعد توقيع المعاهدة تصدّى لها الميرزا الكبير قدّس سرّه بإصدار فتواه التي حرَّمت استعمال التنباك، وهذا نصّها:

«استعمال التنباك والتتن حرام بأي نحو كان، ومَن استعمله كان كمن حارب الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف».

كانت الفتوى بمثابة ثورة ضد الاستعمار، فقد أيقظت العالم الإسلامي، وأعطته الوعي السياسي في تاريخه الحديث، حيث تنبَّه المسلمون بفضلها إلى الأخطار التي يسببها النفوذ الأجنبي في بلادهم.

ولم تؤثّر هذه الفتوى على أفراد الشعب الإيراني فقط، بل سرى أثرها حتّى إلى بلاط الشاه، فعندما شاع خبر الفتوى بين الناس ترك الناس التدخين وكُسرت كُل (نارجيلة)(١) وكُل آلة تستعمل للتدخين، حتّى أنّ نساء وخادمات القصر الملكي في طهران كسرن

(١) النارجلية كانت آلة التدخين في إيران آنذاك وكانت تستعمل على نطاق واسع.

كلّ (نارجيلة) وُجدت في زوايا القصر.

ويُقال: إنّ الشاه طلب من إحدى زوجاته أن تأتي إليه بنرجيلة، ولكنّها قالت له: هذا حرام.

فقال لها: ومن حرّم ذلك وأنا ملك البلاد؟

فقالت: الذي أحلّني لك هو الذي حرّم عليّ وعليك ذلك.

وهكذا ترك الملايين من مواطني إيران آنذاك التدخين عملاً بفتوى الميرزا الشيرازي فاضطر الشاه الى فسخ الامتياز مع الشركة الانجليزية.

* * *

من يرفع راية العدل، ويدعو إلى الحقّ، ويطالب بالحرّية، فلا بدّ أن يجد عاجلاً أم آجلاً من يتبع خطاه، ويستجيب لدعوته..

هذه هي قصّة السّيّد جمال الدين الأفغاني ذلك الرجل العظيم، الذي تفتخر شعوب مختلفة بأنه ينتمي إليها، وهو فعلاً ينتمي إليها جميعاً، لأنّه لم يعمل لفئة دون أخرى، ولا لوطن دون غيره، ولا من أجل إقليم دون آخر.

فقد كان يعمل من أجل الحقّ، والحقّ مقدّس لدى الجميع دائماً.

وقد كان يعمل للحرّية، والحرّية من حقّ الجميع أبداً.

وكان يعمل من أجل الاستقلال، والاستقلال قوّة للأمّة قطعاً.

كان يدعو إلى الحقّ والحرّية، ولذلك أصبح له ظلّ ممدود في دنيا الفكر والسياسة، ودخل حتّى في الكتب المدرسيّة، لأنّه أحد أهم رموز النهضة في تاريخ الشرق الحديث، وهو من آبائها الأوّلين.

لقد مثّل الأفغاني روح النهضة، فصنع تيّاراً متميّزاً في دعوته، وانطلق من التسامح والإخاء في دعوته إلى «الجامعة الإسلاميّة»، مستهدفاً تحرير الشرق من الاستعمار والاحتلال، من خلال إيقاظ الأمّة بالعقلانيّة المتديّنة، والتديّن الفاعل، وكان حامل أوّل مشعل للحركة الإصلاحيّة في القرن الأخير، وكان له الدور الكبير في انبعاث الحركات التي تدعو إلى الاستقلال.

ولد عام ١٨٣٨م في «أسعد آباد»، وبدأ هجراته المتعاقبة وهو في العاشرة من عمره حيث هاجر إلى إيران، وبعد إقامة قصيرة في كلّ من قزوين وطهران، انتقل به إلى النجف الأشرف، وبعد أن درس هناك لعدّة سنوات، أرسله أستاذه إلى الهند، وكان لا يزال دون العشرين من العمر..

كانت تلك بداية هجرات متعاقبة حملت الأفغاني إلى كثير من

البلاد الإسلاميّة عالماً وخطيباً، وناهضاً للهمم، ونافخاً للروح، ومحرّكاً لأبناء الأمّة، وصانعاً للأمجاد.

فبعد إقامته لمدّة سنتين في الهند تمّ طرده منها في عام ١٨٦٩م من قبل سلطات الاحتلال البريطاني، فتجوّل لمدّة خمس سنوات في أرض الله الواسعة؛ لقد دار بين أمم مختلفة، وحاور علماء الأديان جميعاً، ومن أجل نشر دعوته، واستنهاض أمّته هاجر إلى كلّ حواضر الإسلام وغيرها، وأقام في كثير من المدن مثل كابول، وقزوين، وطهران، والنجف، وبغداد، ومكّة، وبمباي، وكراتشي، وكلكتا، وحيدر آباد، والقاهرة، والسويس، وإسطنبول، والبادكوبة، وبخارا، ولندن، وباريس، وبطرسبورغ، وميونيخ.

وكانت طريقته تقوم على الاتصال بأصحاب القرار، وتقديم النصح لهم بما يلزم، فإذا لم ينفع توجّه إلى الناس، وحثّهم على تحمّل مسؤوليّاتهم الاجتماعيّة والدينيّة، وإجراء التغييرات اللاّزمة.

فمثلاً حينما استقرّ به المقام بعد هجرته الأولى إلى إسطنبول اتصل هناك بجانب من الوسط الثقافي، فألقى محاضرة أثارت الجماعات المتزمّتة، فنفي إلى مصر سنة ١٨٧١م، فبقي هناك ثماني سنوات، لكنّه أُخرج من مصر إثر تولّي الخديوي توفيق العرش،

فأبعد إلى الهند مرّة أخرى، وبعد إقامة قصيرة في كراجي ثمّ في بومباي، انتقل إلى حيدر آباد حيث بقي هناك سنتين، أو أكثر، نشر خلالها كتابه «**الرّد على الدهريّين**»، ثمّ ذهب إلى كلكتا، وبقي هناك لمدّة خمسة أشهر.

وعاد إلى إيران، فما لبث أن ألقي به مريضاً عند الحدود، لتخوّف الشاه منه، فذهب إلى أوروبا، وبعد أن زار لندن لفترة قصيرة، استقرّ في باريس لمدّة ثلاث سنوات وأنشأ فيها مجلّة «العروة الوثقى».

وهكذا كان الأفغاني المهاجر الدائم في بلاد الله، يدعو الناس إلى التمسّك بالحقّ، ونبذ الباطل، ومواجهة الظلم، والتحرّر من الاحتلال، والتسلّح بالعلم والإيمان.

ولقد كان الرجل أشبه شيء بكرة النار، ما تمسّ شيئاً إلّا أشعلت فيه لهباً.

فلم يدخل بلداً، إلّا وأيقظ الناس على ما يجب عليهم فعله، وأعاد إليهم روح العمل، والثقة بالنفس، وضرورة النهضة والتجديد، وما من نهضة إلّا وكانت للأفغاني يدٌ فيها.

لقد كان الأفغاني رجل دين، يتحمّل مسؤوليّته الدينيّة في

عمليّة الإصلاح، ومقاومة الظلم، ومواجهته الاحتلال الأجنبي، وكان يرى أنّ الإيمان هو محور التحرّك، وأنّ الإصلاح منه يبدأ، وإليه ينتهي.

لقد اصطدم الأفغاني بالاحتلال الأجنبي متمثلاً ببريطانيا كما اصطدم بالحكّام المحلّيين أيضاً، فمثلاً اصطدم بشاه إيران «ناصر الدين» واعتكف سبعة أشهر في أحد المساجد يكتب ضدّه، محرّضاً على خلعه، فعمد الشاه إلى إخراجه إلى البصرة، ولقد استجاب له الكثيرون، وانتهت الأمور بمقتل الشاه.

ولأنّ السّيّد جمال الدين كان يعبّر بجلاء عن ضمير الأمّة، ويعمل لمعالجة آلامهم، وينير لهم الطريق لتحقيق طموحاتهم فقد كانت لكلماته فعل السحر في الناس، وخاصّة الطبقة المثقفة منهم.

فقد عبّر خير تعبير عن المشكلات التي كان المسلمون يعانون منها، وكان يحثّهم بحماسة بالغة على محاولة فهم أسباب التخلّف والعمل لإصلاحها.

ثمّ إنّ الأفغاني تميّز، بالإضافة إلى وعيه وثقافته، بصفات شخصيّة جعلت منه قائداً فذاً، وزعيماً كبيراً، فلقد كان جريئاً في قول الحق، لا يخشى أحداً إلّا الله، فلا السلطات الانجليزية في عزّ

عظمة بريطانية، ولا الحكّام المحلّيون كانوا يثيرون خوفه، وكان يواجههم بقوّة المنطق، وشجاعة المقاوم.

أمّا السنوات الأخيرة من حياته فقد قضاها في إسطنبول، وذلك في عام ١٨٩٢م، وهناك من يرى أنّه قد دُسّ له السمّ وتمّت تصفيته في عام ١٨٩٧م.

غير أنّ الذي لم يكن بمقدور أحد تصفيته من السّيّد الأفغاني، فهي تلك الروح التي حملها بين جنبيه وبثّها في الأمّة، والتي لا تزال تعطي ثمارها حتّى اليوم.

هل يمكن إعادة حضارتنا؟

تساؤل يُطرح بين الفينة والأخرى على ألسنة الناس في بلادنا:

هل يمكن أن نعود إلى الدور الريادي الذي كنا نؤدّيه في غابر الزمن؟

وبعبارة أخرى هل يمكن لحضارتنا التي سادت ثمَّ بادت، أن تعود مرة أخرى وتسود؟

والجواب: إنّ الحضارة التي تبيد تشبه السيارة التي تُستخدم ثمّ تتحوّل إلى خردة، وإذا تساءلنا هل يمكن لسيارة استخدمت سابقاً واستعملت، وتحوّلت إلى كومة من الحديد والمواد المستخدمة، هل يمكن لها أن تعود مرة أخرى سيارة فارهة تتسابق مع بقية السيارات؟

الجواب هو: إنّ ذلك ممكن بشرطين:

- **الشرط الأول:**

أن نُعيد صناعتها بعد تحطيمها، أي أن نعيد السيارة السابقة،

بعد أن نقوم بإذابة الحديد من جديد، وإعادتها إلى جذورها وأصولها الأولية، ومن ثمّ صبّها من جديد في القالب الصحيح.

التصحيح وحده هنا لا ينفع، لأن صبّ الأموال على السيارة المستهلكة لا يحوّلها إلى سيارة جديدة، وهذا يشبه أن نرمي ماءً في بئر، فهي تقول هل من مزيد، ولا تعطيك شيئاً مما تريد.

- **الشرط الثاني:**

أن نقيم مصنعاً جديداً، يقوم بإعادة صياغة السيارة، أي القيام بما يسمى في اللغة الإنكليزية بـ (ريسايكلنك - recycling)، ففي عالم اليوم كثيرة هي الأشياء التي تعاد صناعتها، مثلاً الأوراق المستهلكة تُؤخذ وتعاد في مصانع خاصة، إلّا أنّ الإعادة هذه لا تأتي من خلال مسح ما كُتب على الأوراق، وإنّما من خلال ذوبانها وإعادتها إلى مادتها الأولية، ومن ثمّ صناعة الورق منها.

وبالنسبة إلى حضارتنا الأمر أيضاً كذلك، لا يمكن تصحيح حضارة سقطت مع وجود أسباب سقوطها فيها، لأنّ عوامل السقوط فيها هي التي أدت إلى سقوطها، فمادامت تلك العوامل موجودة فكيف يمكن إعادة حضارة لم تستطع أن تحافظ على نفسها بالرغم من تاريخها الطويل؟ كيف يمكن إعادتها بأخطائها،

وبما كانت عليه قبل السقوط؟

بعضنا لا يزال يحلم باستعادة الخلافة العثمانية مثلاً، وكأن تلك الخلافة كانت النموذج الأفضل، وحتّى لو كان الأمر كذلك بالنسبة إلى ذلك الزمان، فهي ليست النموذج الأفضل اليوم، بالإضافة إلى أنّ تلك الخلافة لم تسقط إلّا لأنّ عوامل انهيارها كانت في داخلها، ولذلك سقطت، وإلّا لم تكن لتسقط، إذ لا شيء يتبدل ويتغير في هذا الكون إلّا بعلّة وسبب، ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

إنّنا يجب أن نُعيد كلّ شيء إلى أصوله، ونعود إلى بناء جديد على تلك الأصول، مع قطع النظر عن الشكليات التي كانت قائمة في الماضي، مثل خلافة الذين تعاقبوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باستثناء عهد الإمام علي عليه السلام، أو شكلية الخلافة الأموية، أو شكلية الخلافة العباسية، أو شكلية الخلافة العثمانية، كلها مجرد شكليات، مثلما السيارة التي اسُتهلكت كانت في شكل معيّن.

الحفاظ على ذلك الشكل، وإعادة ذلك الشكل ليست هي المسألة الرئيسية، المسألة الرئيسية هي كيف نعيد السيارة بشكل

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٣.

تتناسب مع حاجتنا اليومية وتتنافس مع السيارات الأخرى.

حضارتنا يجب أن تعود، ليس بمعنى أن نعيد ذات الأشكال في الملبس والمأكل والمسكن وطريقة الحكم وما شابه ذلك، وإنما تعود بقيمها ومثلها ومبادئها، هذا هو الجوهر المطلوب.

أن نحافظ على الأصول، وأن نستفيد من التجارب الإيجابية في تاريخنا، ونتجنب التجارب السلبية التي أدت إلى سقوط حضارتنا، ونأخذ خير ما توصل إليه العقل البشري، من دون أن نتجاوز أصول ديننا وحضارتنا السابقة.

وهذه العملية ربما تؤدي إلى إعادة حضارة مختلفة في الشكل، لكنها تحمل نفس الروح، ونفس القيم الحقة والمبادئ السامية.

فعلى سبيل المثال قد لا يكون شكل الحكم مثلما كان في العهود السابقة التي تارة اعتمدت على التعيين، وتارة تظاهرت بالشورى، بل ربما لا بدّ من الاعتماد على الشورى في حضارتنا الجديدة، وقد تكون الشورى بشكل ديمقراطي يأخذ بعين الاعتبار كلّ الأصول التي نؤمن بها، لا بمعنى الديمقراطية الغربية التي هي الأخرى في حالة الاستهلاك، وربما لا تصمد كثيراً أمام عوامل الزمن باعتبار أنّ عوامل انهيارها موجودة في داخلها، والدليل على ذلك أن هذه

الديمقراطية تؤدي إلى نتائج مأساوية، سواءً على شكل استعمار الشعوب المستضعفة، أو على شكل بروز قوى لا تمتلك الكفاءة اللازمة، ولا التقوى اللازمة لتبوَّأ مناصب عالية في الدولة وإدارة أمور الناس.

إنّ الحقيقة المرة التي يجب أن نتقبلها هي أنّنا ضيّعنا حضارتنا بأيدينا، وذلك حينما ضيّعنا ديننا، وقد تسأل ما هو دور الدين في إعادة حضارتنا؟ أليس الدين مجموعة من الطقوس والعبادات؟

والجواب: نعم إذا أخذنا الدين بهذا المعنى، وحصرناه في الجانب العبادي، ولكن الدين أوسع من ذلك بكثير، فالدين مجموعة متكاملة من التشريعات والأخلاقيات لا تقتصر على العبادات بل تتعداه إلى كلّ جوانب الحياة، يقول تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ..**﴾[١].

إنّنا اليوم قادرون على إعادة حضارتنا من خلال إعادة البناء القائم على الفهم المتكامل للدين، فنحن في الوقت الذي نقيم

(١) سورة البقرة، الآية ٨٥.

الصلاة في المجتمع فإنّ علينا أن نحقّق العدالة الاجتماعية للناس جميعاً عبر تعاليم الإسلام، إنّنا إذا نشيد المساجد فإنّ علينا أن نبني المدارس والجامعات لنشر العلم الذي حثنا الإسلام على طلبه، إنّنا نقوي علاقة الإنسان بربه، وفي ذات الوقت لا بدّ من أن نقوم بتقوية الروابط الاجتماعيّة القائمة على الأسس السليمة، ونبني أنظمة التكافل والعدالة الاجتماعيّة.

إنّ حضارتنا في الماضي بلغت ما بلغته حينما التف الناس حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعملوا بنهجه وشرعته، وهي اليوم يمكن أن تعود إذا عدنا إلى ذلك النهج السليم، ولكن بشرط العودة إلى النهج الكامل وليس المجتزأ.

الاستقامة والبناء الحضاري

أعجب ما في الكرة الأرضيّة وسائر المجرّات أنّها جميعاً تخضع لقانون «السنن الإلهيّة»!

فالطبيعة لها سنّة والأشجار أيضاً، وكذلك الماء والهواء والكهرباء، وشاء الله أن ترضخ جميع الموجودات لذلك القانون حتّى قال الله في كتابه: ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**﴾[1].

ولو عكفنا على دراسة هذا القانون المهم في الحياة لاكتشفنا أنّ الاستقامة والثبات على المبدأ من أهم السنن الإلهيّة كشرط أساسي للنجاح: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[2].

فالبذرة لا تصبح شجرة صالحة بحيث تؤتي أكلها كلّ حين إلّا إذا استقامت أمام الحرّ والبرد، وشحّة الماء، وحرارة الشمس اللاّفحة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٢.

(٢) سورة هود، الآية ١١٢.

والبناءُ الشامخ لا يقوم إلّا إذا استقام البنّاؤون، وواصلوا الطريق بصبر وشكيمة.

والتاجرُ لا يصل إلى مستوى رفيع إلّا إذا صمد وصبر أمام التحوّلات الاقتصاديّة، وقاوم الفشل والخسارة، لفترة من الزمن.

وإذا كنّا نواجه في حياتنا الفشل، فإنّ ذلك يعني أنّنا لم نحسن التعامل مع قانون الاستقامة، وتركنا نظام السنن الإلهيّة وراء ظهورنا، وصرنا نتشبّث بأمور ثانوية علّها تقودنا إلى النجاح.

ولكن ما هو معنى الاستقامة؟ وإذا كنّا نقوم بعمل معيّن لفترة من الزمن ثمّ أهملناه، فهل نُعدّ من المخالفين لهذه السنّة؟

والجواب: إنّ الاستقامة تعني الصبر أمام التحوّلات، فالحياة قائمة على سنن خارجة عن إرادتنا ولا نستطيع التحكّم فيها، وإنّ أي مشروع فردي أو جماعي يرتبط بتغيير أمّة أو شعب، او ببناء حضاري فلا بدّ من أن يمرَّ بنفق مظلم من المشاكل والعقبات، والمواقف الصعبة.

فالنصر لا يقدّمه الله تبارك وتعالى على طبق من ذهب، وإنّما يأتي بالبلاء والتمحيص، لينظر أنستقيم على هذا الخط أم نتراجع أمام أوّل مشكلة؟

يقول تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

فكلّ مشروع في هذه الحياة بحاجة إلى الاستقامة، سواء كان مشروع زواج، أو مشروع ثورة لبناء حضارة، أو على مستوى إعادة الدين إلى الحياة من جديد، وإدخاله إلى مفاصل الأمّة وشرايينها.

والاستقامة تعني أن لا تتراجع عن عملك، ومواقفك، إذا كانت حقّه وكنت تؤمن بها.

لقد مرّت أمّتنا بأجيال مختلفة وتجارب متعددة، لكنّ الجيل الأوّل كان جيل الاستقامة الحقيقي. ففي ذلك الوقت كلما تعرّضت الأمّة لمشكلة ازدادت استقامة على الجهاد، وعزيمة على الاستمرار على النهج والموقف الثابت، والصبر على الصعوبات، وهذا هو جيل أتباع الأنبياء والذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع بدء الدعوة المحمّدية، الذين يصفهم القرآن بقوله: **﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾**(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٤.

(٢) سورة آل عمران ١٤٦.

ذلك أنّهم ما تراجعوا، وما ضعفوا، وما استكانوا أمام الانتكاسات، والمشاكل، والتحدّيات، وما تنازلوا عن مواقفهم ومبادئهم، أمام أيّ من الإغراءات قط.

لقد مرّوا بظروف عصيبة، وقد قاطعوهم واتّهموهم، لكنّهم استمرّوا في إنجازاتهم وما تراجعوا، فكانوا الجيل الذي ينتزع الحق والنصر من أيدي غاصبيه.

وإلى جانب هذا الجيل هناك جيلٌ يمكن أن نسمّيه «جيل المائعين»، جيلٌ ضيع الدين وتمسك بالقشور، جيل باع آخرته من أجل دنياه، يقول تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[١].

إنّ هذا النوع من الناس لم يمرّوا بظروف قاسية كي تنخلهم وتصفّيهم، ولذلك فإنّهم يتنازلون وينهارون أمام أوّل هزّة وأبسط هبّة ريح، ويبيعون قيمهم من أجل حطام الدنيا، وهم الذين وصفهم الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «**إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَ الدِّينُ لَعْقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا مُحِّصُوا بِالبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ**»[٢].

(١) سورة مريم، الآية ٥٩.

(٢) تحف العقول، ص: ٢٤٥.

وبعد هذا الجيل المائع يأتي دور جيلٍ جديد يتوب إلى الله تعالى، ويرفض المنهج (اللاأبالي)، ومن ثمّ يستقيم على الطريقة ويتحمل المسؤولية ويعيد مجد الآباء والأجداد الصالحين.

إنّ قراءة التاريخ تكشف لنا بوضوح وجود هذه الأجيال الثلاثة في الأمّة الإسلامية وفي غيرها من الأمّم، فرسول الله ﷺ وصحابته الأوّلين ممن خلصَ إسلامه والأئمة الطاهرين عليهم السلام وصحابتهم، هم من الجيل الأول الذين قاتلوا وقُتلوا وهجّروا وعذّبوا، إلّا أنّهم استقاموا وصبروا، ودفعوا بالمسيرة الرساليّة إلى الأمام، ولم يسمحوا لشعلة الحق أن تخبو.

أمّا الجيل الثاني «المائع» فقد مثّله بنو أميّة وبنو العبّاس ومن جاء بعدهم مثل بني عثمان، ومن لفّ لفّهم من الذين اتبعوا كلّ شيطان مريد، حتّى انهزمت وخارت قوّة الأمّة في عهودهم السوداء، فتراجعوا كأفراد وكأمّة عبر ابتعادهم عن منهج الله عزّ وجلّ.

إنّنا اليوم نتطلّع إلى الجيل الجديد، الذي ينهض من تحت الرماد، ويرفع رأسه من تحت ركام الهزائم والانتكاسات.

إنّنا بحاجة إلى جيل جديد يقتدي بالإمام عليّ عليه السلام في

التحوّلات والمتغيّرات، جيل يقتدي بالإمام الحسين عليه السلام في استقامته حتّى اللحظات الأخيرة من حياته.

* * *

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**شَيَّبَتْنِي هُود**»[1].

تُرى لماذا سورة هود بالذات؟

يقول ابن عباس: «ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية كانت أشدّ عليه وأشق من قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾[2]»[3].

فاستقامة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت متوقّعة، ولكن استقامة من كانوا معه هي التي شيّبته.

وقد قدّم الله لهذا الحكم مقدّمة من الآيات، فلا يضرّك الكثيرون من الذين خضعوا للطاغوت، فإنّهم يعبدون كما عبد آباؤهم، وسيجدون الهزيمة لأنّهم تعوّدوا على التراجع والخضوع، والذين تابوا معك من عمل جيل المائعين.

(١) وسائل الشيعة، ج٦، ص: ١٧٢.

(٢) سورة هود، الآية ١١٢.

(٣) سفينة البحار، ج٧، ص: ٣٨٤.

ومن بعد ذلك يطلب الله عزوجل منهم تجنّب الطغيان: ﴿وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

لنعد إلى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام حول الاستقامة ولنتدبر فيها:

يقول الإمام عليّ عليه السلام:

«**مَنْ طَلَبَ السَّلَامَةَ لَزِمَ الِاسْتِقَامَة**»[2].

فبعض الأفراد يظنّون بأنّهم إذا تراجعوا عن خط العمل المضني والجهاد الحق، فإنّهم ينجون ولا يعلمون بأنّ الاستقامة هي النجاة، فـ «**لَا مَسْلَكَ أَسْلَمُ مِنَ الِاسْتِقَامَةِ**»[3] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

و يقول الإمام عليّ عليه السلام أيضاً:

«**عَلَيْكَ بِمَنْهَجِ الِاسْتِقَامَةِ فَإِنَّهُ يَكْسِبُكَ الكَرَامَةَ، وَيَكْفِيكَ المَلَامَةَ**»[4].

و في خطبة له عليه السلام يقول:

(١) سورة هود، الآية ١١٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٥٩٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٧٧٥.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص: ٤٤٥.

«العَمَلَ العَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ».

علينا أن نوصل العمل حتّى النهاية ونستقيم عليه، ولا نتركه في منتصف الطريق لأنّ في هذا الترك الهزيمة بعينها، ثمّ يستطرد أمير المؤمنين عليه السلام بالقول:

«وَالِاسْتِقَامَةَ الِاسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ»[1].

عليك أن تعمل فإذا واجهت الصعوبات فعليك بالصبر والاستقامة، فالعمل بلا استقامة لا يجدي نفعاً.

ثمّ يقول عليه السلام:

«أَلَا وَ إِنَّ القَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَ القَضَاءَ المَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ[2]**، وَ إِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَ حُجَّتِهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وَ قَدْ قُلْتُمْ رَبُّنَا اللهُ فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَ عَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ، ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَ لَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَ لَا تُخَالِفُوا عَنْهَا»**[3].

ولقد وعد الله سبحانه وتعالى بثمرة الاستقامة بحجمها قائلاً:

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦.

(٢) هو تفعّل كتنزّل، أي ورد شيئاً بعد شيء.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾[1].

لقد استقام المسلمون فترة من الزمن، ورأينا كيف انهارت تحت ظل سيوفهم الإمبراطوريتان: الرومانية والفارسية على أعتابهما.

أولئك الذين كانوا يأكلون القد أقاموا حضارة وصلت إلينا أروع آثارها، فنشروا الدين في بقاع بعيدة، ولكن خلفهم من أضاع الحضارة بالميوعة والتنازلات، وأخذوا يأكلون ثمار الفتح الإسلامي المبين.. أولئك سرّاق الحضارة، فقد أفسدوا في الأرض، وسيطروا على أموال وممتلكات وحضارة شيّدها السابقون لهم.

فبدلاً من أن ينتهجوا مسلك أسلافهم، ويطوّروا الحضارة التي بناها أولئك المستضعفون الجياع بدمائهم وحرمانهم وتشرّدهم وحضورهم الفاعل في ساحات المواجهة مع أعداء الله، تحت بريق الأسنّة والسيوف وسنابك الخيل، راح هؤلاء المتميّعون يساومون على دينهم، ويجرفون الأمّة إلى هاوية الانحطاط والتردّي، وبذلك باعوا آخرتهم بدنياهم.

***

علينا أن نشحذ هممنا لإعادة تلك الحضارة الإسلامية وبعثها

(١) سورة الجن، الآية ١٦.

من جديد ليعم السلام والرفاه والحرّية في جميع أنحاء المعمورة خاصّة تلك البلاد التي تعاني من تراجعات حضارية، وتبحث عن قيم تنقذها من مآسيها التي تعصف بها ولا تدري إلى أين تجرّها في نهاية المطاف.

إنّ حركتنا نحو بناء الحضارة ستنعكس علينا أوّلاً، وعلى الآخرين ثانياً، وهو واجبنا المقدّس الذي لا مناص عنه، والذي به ننال رضوان الله تبارك وتعالى، ونستحق رحمته في الدنيا والآخرة، وبه نستعيد حضارتنا الإسلاميّة المجيدة.

التعاون والتنافس أساس الحضارة

الطاغوت عدوّ الله، وعدوّ الناس، وعدوّ نفسه أيضاً..

إنّه ضد الحضارة لأنّه يفرض ثقافة خاطئة..

وهو بلا شك عقبة في طريق التقدم الحضاري..

لأنّ الحضارة قائمة على مبدأين أساسيين هما:

التعاون والتنافس؛ فبدون التعاون لن تتحقق صفة الجماعة التي جعلها الله تعالى شرطاً لوضع يده معها، ومباركته لعملها حيث جاء في الحديث عن أمير المومنين عليه السلام: «**فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ**»[1]، وبدون التنافس لا تتقدم الأمّم.

ولذلك فإنّ التعاون وحده لا ينفع، لأنّه في أحسن صورة يتحوّل إلى وحدة قسرية تقتل المبادرات الشخصية والدوافع الذاتية في الناس، فما قيمة التعاون الذي يُلغي حرية الأفراد ويحوّلهم من بشر لهم عقولهم وتطلعاتهم ودوافعهم، إلى آلات

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٢٧.

منتجة لا روح فيها.

من هنا كان لا بدّ من التنافس في بطن التعاون، والتعاون في بطن التنافس.

غير أن الاعتماد على مبدأ التنافس وحده يؤدي هو الآخر إلى الفساد، أي إلى أنانية بغيضة تؤدي إلى تراكم القوى وتجمع الإرادات حول محور واحد.

وهكذا فإنّ لكلٍّ من التعاون والتنافس آفات يمنعها الآخر؛ فآفات التعاون يمنعها التنافس، وآفات التنافس يصدها التعاون.

ولقد كان التعاون في صورته الأجلى موجوداً في المجتمع الاشتراكي الذي لم ينفعه تعاون أبنائه القسري شيئاً، وانهارت الاشتراكيات في أوربا والاتحاد السوفيتي.

كما كان التنافس في صورته الأجلى في المجتمعات المتخلفة التي تحوّل التنافس فيها إلى أنانية مطلقة، منعتها من تنمية قدراتها وتعاون أبنائها.

بينما نجد التعاون والتنافس في كلّ الحضارات، سواءً التي بادت أو التي لا تزال قائمة؛ فمثلاً بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا حالة من التعاون الوثيق تعكسها الاتفاقيات العسكرية

والسياسية والثقافية، ومع ذلك فإن التعاون الوثيق لم يمنع من التنافس الشديد الذي يصعب إحصاء مجالاته.

ولهذا فإنّ الله أمرنا بالتعاون كما أمرنا بالتنافس في آيتين مختلفتين، فقال عزّ وجلّ: ﴿..**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَى**..﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿.. **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[2].

ولأنّ التعاون والتنافس ضروريان لبناء الحضارة، فإنّ كلّ من يمنع أحدهما ويقف حجر عثرة في طريقهما، فهو عدوّ الحياة وهادم الحضارة، إنّه طاغوت، من هنا كان الطاغوت ضد التعاون بين أفراد الناس، و ضد التنافس فيما بينهم كذلك.

(١) سورة المائدة، الآية ٢.

(٢) سورة المطففين، الآية ٢٦.

قانون الثواب والعقاب

لا يوجد أفضل من قانون الثواب والعقاب دافعاً إلى الخير، ومانعاً من الشّر، في المجتمعات البشرية، فما من أمّة تطبق هذا القانون إلّا وستنعم بالتقدم والازدهار والنمو وتغلب فيها عوامل الخير على عوامل الشّر، وما من أمّة تهمله إلّا ويتغلب فيها أهل الشّر على أهل الخير.

إنّ العمل الصالح لا بدّ أن يُثاب صاحبه عليه، ولا يُكتفى معه بالتشجيع فقط، كما وأنّ عمل الشّر لا بدّ أن يعاقب صاحبه عليه، ولا تكفي إدانته فقط.

فالثواب والعقاب هو قانون الكون وهما من سنن الله الكبرى، أي أنّ الله عزّ وجلّ حينما أراد أن يجري العدالة في الكون أجراها بوسيلة الثواب والعقاب، فجعل لكلّ فعل رد فعل، يخالفه في الاتجاه ويتناسب معه في النوعية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا**

يَرَهُ﴾[١]، **﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾**[٢].

فوسيلة تطبيق العدالة في هذه الدنيا، وفي الآخرة هي قانون العقاب والثواب، وهي وسيلة تطبيق العدالة بين البشر، إذ كيف يمكن أن يسود العدل بين أبناء الأمّة، من دون وجود قانون الثواب والعقاب؟.

قد تسأل: من يُثيب ومن يُعاقب؟

المسألة ترتبط بالنظام الاجتماعي القائم، الذي يختاره الناس جميعاً، أو يوافق عليه أغلبيّتهم.

حينما تُوضع الأسس السليمة، ويوافق الجميع على دستور محدد، وقواعد صحيحة للسلوك حينئذٍ لا بدّ من أن يأتي قانون الثواب والعقاب الذي يتم تطبيقه عبر قضاء مستقل لا تشوبه شائبة، ولا بدّ أن يشمل هذا القانون الصغير والكبير، والقويّ والضعيف، وإلّا بطل كونه ثواباً وعقاباً.

فلا تمييز في قانون الثواب والعقاب بين فرد وآخر، وإذا وقع التمييز يكون قد وقع الظلم في أهم وسائل تطبيق العدل،

(١) سورة الزلزلة، الآيات ٧-٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ١٣.

والسلاح الذي تمتلكه العدالة يكون قد اعتلاه الصدأ، فالعدالة بلا أنياب سوف تداس بالأقدام، وتكون مجرد لوحة جميلة يرفعها البعض لكي يخالفها.

لقد جيء إلى رسول الله ﷺ بامرأة لها شرف في قومها قد سرقت، فأمر بقطعها، فاجتمع إلى رسول الله ﷺ ناس من قريش وقالوا: يا رسول الله تقطع امرأة شريفة مثل فلانة في خطر يسير؟!

فقال ﷺ: **«نَعَمْ.. إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هَذَا؛ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحُدُودَ عَلَى ضُعَفَائِهِمْ، وَيَتْرُكُونَ أَقْوِيَاءَهُمْ وَأَشْرَافَهُمْ فَهَلَكُوا»**(١).

فسبب هلاك الأمّم هو وجود شرخٍ في قانون الثواب والعقاب، إمّا بعدم وجوده أساساً، حيث تكون القوة هي البديلة عن العدالة، وتسود حينئذٍ شريعة الغاب، فالقوي يأكل الضعيف والضعيف يتحول إلى لقمة سائغة لدى القوي، أو حينما لا يُطبّق قانون الثواب والعقاب بشكل متساو بالنسبة إلى الجميع فيعاقب الضعيف لضعفه، ويترك القوي لقوّته.

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج١٨، ص: ٧.

مقاييس تقييم الحضارة

قبل أن نقيّم أيّة حضارة، لا بدّ أن نعرف الميزان والمنهج في التقييم.

حينما نريد أن نتعرف على حضارةٍ ما فإنّنا نضع مقاييسها هي ومنطلقاتها نصب أعينا، ولكن عند التقييم لا بدّ أن نقيّمها بمعاييرنا نحن، ولو عكسنا الآية فحاولنا أن نفهمها بمعاييرنا، ونقيّمها بمقاييسها لوقعنا في الخطأ الذي يمنع عنّا الرؤية، وهو الخطأ الذي يقع فيه المنبهرون عادة.

إنّ لكلّ حضارة خصائصها وجذورها، ومن ثمّ فإنّ لها قوانينها وقنواتها الخاصة بها، فكما أنّ لكلّ نهرٍ منبعه ومصبّه ومنعطفه، كذلك لكلّ حضارة منبعها ومصبها ومنعطفاتها، ولكي نحسن التعامل مع النهر، ونستفيد منه لا بدّ أن نعرف المنبع والمصب والقنوات، كذلك لا بدّ أن نعرف الجذور والقوانين والقنوات التي تقوم عليها الحضارة، وهذا لا يعني أن نقبل بمنهجها في ذلك.

واستمراراً في المثال السابق أقول: إنك لا بدّ أن تعرف النهر من منبعه ومصبه، ولكن إذا أردت تقييمه فلا بدّ أن تقيسه بما لديك من خرائط.

ثمّ إنّ لكلّ حضارة سطحاً وعمقاً؛ فالسطح قد يحمل معه كلّ غث وسمين، وهو الذي يراه الناس عادة، فينخدعون ببعض المظاهر فيه ويبنون تقيمهم بناءً عليه، أمّا العمق فهو يكشف عن جذور الحضارة، ويعطي الباحث صورة حقيقية عن حقيقتها، وبمعرفة الجذور يمكن معرفة النتاج الحضاري، لأنّ الثمار مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجذورها.

ولا يعني ذلك أنّ جذور حضارة اليوم نظيفة وسليمة تماماً، بل قد تكون خليطاً من الخير والشّر، غير أنّ الخير هو الذي يعطي النتائج الخيّرة، والشّر يعطي النتائج الشريرة، ولا يمكن أن تنعكس الآية، فينبع الخير من الشّر، أو الشّر من الخير.

وتماماً كما أنّ الله تعالى يخلق الإنسان نظيفاً، حيث إنّ «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**»[1]، كما يقول الحديث الشريف، ثمّ ينحرف من ينحرف، ويبقى سليماً من يبقى سليماً، فإنّ الحضارات

(١) الكافي، ج٢، ص١٣.

التي تُولد من نُطفٍ نظيفة، وتبتدئ طاهرة قد تنحرف في مصباتها ومنعطفاتها، وتتلوث بالشهوات والملذات، ولا تُستثنى من ذلك حتّى الحضارة الإسلامية، فحينما تدخّل أصحاب المصالح وعبّاد الشهوات أفسدوا الحضارة الإسلاميّة، وحرّفوها عن جذورها الأصليّة، وحسب تعبير القرآن ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ..**﴾[1].

وهنا سؤال يقول: ما هي المقاييس التي نقيّم بها الحضارة؟

الجواب: هنالك مجموعة من القيم والمُثل والقواعد العامة، وبعبارة أخرى هنالك مجموعة من سنن الله عزّ وجلّ فيما يرتبط بالخلق والحياة، لا بدّ من استنباطها واتخاذها ميزاناً ومقياساً للحكم على كلّ الظواهر، خاصة الظاهرة الحضارية والتي هي قمة نتاج الإنسان.

من تلك السنن والقواعد والقوانين -أوسمّها ما شئت- مسألة وجود الله تعالى والإيمان به، ومسألة كرامة الإنسان وحقوقه، ومسألة العدل والإحسان، ومسألة ضرورة الالتزام بالحدّ الأدنى من المفردات الأخلاقيّة، كالصدق والأمانة والصلاح والحق وما شابه ذلك.

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٩.

بهذه الموازين نقيّم الحضارة.

فلو نظرنا إلى الحضارة الغربية اليوم -مثلاً- فإنّنا نرى أنّها تنتهج الازدواجية في المعايير، فتطبق القيم حينما تكون مصالحها متطابقة مع تلك القيم، وتقفز عليها حينما تتعارض مع مصالحها، فالحرية كقيمة مهمة في البناء الحضاري نجدها موجودة كشعار كبير وبراق في الغرب، ولكنّ هذه الحرية لا تطبّق في كلّ شيء ولا في كلّ زمان، وإنّما حينما تكون سبيلاً للوصول إلى أهداف معينة، رغم أن الظاهر الجميل للقوانين والدساتير الغربية هو الإيمان بالحرية.

فعلى سبيل المثال حينما نأخذ المرأة كمثال في المجتمع الغربي، فإنّنا نجد أنّهم يرفعون شعار حرية المرأة، ولكن فقط حينما تكون هذه الحرية طريقاً لتحقيق متع الرجال، وبذلك تتحوّل من إنسان له كرامته إلى مجرد قارورة عطر، أو صورة في غلاف مجلة، أو مجرد شيء يتذوقه الرجل لجماله ثمّ يلفظه، ونفس هذه الحرية يتم سلبها حينما تصبح في الاتجاه المعاكس لشهوات الرجل، فالغرب يحارب حجاب المرأة، ويحاول منعه عن المرأة، ويسن القوانين ضده، فالقانون الفرنسي منذ عام ٢٠٠٤م ينص على منع الحجاب في المدارس والإدارات العامة، إضافة إلى قيام الكثير من الدول

كفرنسا وبلجيكا وإيطاليا وغيرهن بمنع النقاب، وفرض غرامات مالية على المخالفات، أمّا في هولندا فقد فُصلت معلمة مسلمة لأنّها رفضت مصافحة زملائها من الرجال، وكذلك اشترطوا للحصول على الجنسيّة في الدنمارك أن تصافح المرأة الرجل، أو الرجل المرأة في حفل إعطاء الجنسيّة، وقد طردوا امرأة من الحفل، ولم يعطوا الجنسيّة لها لأنّها رفضت المصافحة.

أين حريّة المرأة هنا؟ إنّها تبقى هناك سبع سنوات، وتؤدّي واجباتها كأفضل ما يكون، ثمّ يرفضون إعطاءها الجنسيّة، لأنّها ترفض مصافحة الرجل في حفل إعطاء الجنسيّة! والعجيب أنّ الغرب باسم الحرية يحارب حرية المرأة، في اختيار ما تلبسه وكيف تظهر في المجتمع.

إذن فلا يمكن لمن يقيم حضارة ما أن يتغافل عن انتهاك أصحاب هذه الحضارة للسنن والقوانين الإلهية في الكون، كما لا يمكن إغماض العين عن الجذور التي أنتجت نتاجها الحضاري.

إنّ الحضارة بشكل عام ليست ذات شكل واحد، بل هي متعددة الأشكال والأنماط، وحضارات البشرية، وإن كانت بينها قواسم مشتركة، إلّا أنّها في ذات الوقت كانت متمايزة فيما بينها،

وهذا يعني أنّ الحضارات متعدّدة الأنماط، ومن ثمّ فقوانينها ومناهجها هي الأخرى متعددة، ومن هنا فلا يجوز أن نعتمد على منهج واحد يرتبط بحضارة معينة، لتقييم حضارة أخرى لها منهجيتها الخاصة بها.

إنّك لا بدّ أن تفهم تصرّفات كلّ إنسان ضمن خصائصه وظروفه وأوضاعه، وحتّى فيما يرتبط بجسمه الذي غالباً ما يكون متشابهاً مع أجسام الآخرين فلا بدّ من أخذ خصوصيّاته بعين الاعتبار، ولذلك نرى أنّ لكلّ واحد منّا ملفه الخاص به عند الأطباء، ويؤخذ بهذا الملف في معالجاته، فكيف إذا كان الأمر يرتبط بروحه؟ ثمّ كيف إذا كان الأمر يرتبط بحضارة ما؟

وهكذا فإنّ من السُخف أن نأخذ مقاييس معينة كموازين لفهم حضارة لا تمت إلينا بصلة، وهذا يعني أنّ من يريد أن يبني حضارته فلا يجوز أن يستعير مناهج الحضارات الأخرى ومعاييرها، لأنّ ذلك يشبه أن يعالج الطبيب مريضاً معيناً بدراسة ملف مريض آخر، أو في الحالة الإيجابية فإنّ الأمر يشبه أن تقوم أنت بشراء بيت على أساس مواصفات بيت آخر.

الموقف من الحضارة

هنالك ثلاثة مواقف طبيعية تجاه الحضارة التي نعيشها، وهي:

- أوّلاً: الموقف المنبهر..
- ثانياً: الموقف الرافض..
- ثالثاً: الموقف المنافس..

من الطبيعي أنّ أبناء البلاد المتخلفة ينبهرون بأبناء البلاد المتقدمة، وحالة الانبهار أساساً تمنع صاحبها من أن يفهم نفسه، أو أن يفهم من انبهر به.

ومن ثمّ فإنّ المنبهر يفتقد القدرة على الفهم، وبالرغم من اتباعه المطلق لمن انبهر به فهو يعجز عن التفاعل معه، لأنّ التفاعل لا يتم إلّا بما يفهمه وبما يتلاءم معه.

وكثير من أبناء أمّتنا لهم حالة الانبهار بالغرب، وهنالك أقلية يتخذون موقف الرفض المطلق؛ وفي نظرهم إنّنا لا ننتمي إلى هذه الحضارة، فلا بدّ من رفضها بالمطلق، ورفض نتائجها وبرامجها

وما توصلت إليه، ولربّما قاطع البعض كلّ النتاج الغربي، وحتّى المنتجات الصناعية لأنّها قادمة من الغرب.

إنّ المطلوب ليس هو الانبهار، لأنّه إسقاط لإنسانية الإنسان، وليس الرفض لأنّه رفض لنتائج العقل البشري، وإنّما المطلوب هو التنافس.

ولا نعني بالتنافس هنا القتال والمواجهة، وإنّما التدافع البشري من أجل التقدم والرقي، والحركة المتواصلة لمواجهة كلّ عوامل السقوط والانهيار، فكما أنّ النبتة تصارع التراب فتخرج منه وقد أخذت أهم عناصره النافعة، ثمّ تنمو متحدية العوامل الطبيعية من رياح وأمطار وغيرها، كذلك هم البشر في صناعتهم للحضارة، يقول عزوجل: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهَ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ**﴾(١).

إنّ هذا الصراع والتدافع يعني فيما يعني أن يتخذ الإنسان موقف القبول في الإيجابيات، وموقف الرفض في السلبيات، ثمّ ينطلق نحو البناء الحضاري، أي أنّه حالة وسطى بين المنبهرين وبين الرافضين.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

وقد يطلب منا الصراع مواجهة الحضارة الغربيّة سياسيّاً وثقافيّاً، أو ما شابه ذلك.

لكنّ المهم أن يكون التنافس والصراع هو الأساس في اتّخاذ الموقف المطلوب من هذه الحضارة، أو أثناء بناء حضارتنا الخاصة.

حضارتان..
في منظار التقييم

ما هو الفرق بين مدنيّتين: واحدة تسخّر الإنسان لأغراض تجارية، وأخرى يسخّرها الإنسان لأغراض إنسانية؟

قد يكون السؤال واضحاً أكثر عندما نقرأ هذا الخبر:

تستخدم بعض الشركات الفرنسية والأمريكية «الأجنّة» البشرية لصناعة مستحضرات التجميل، إذ يعتبر خبراؤها أنّ الجنين نظراً لأعضائه الطرية، هو أفضل مادة يمكن استخدامها لتلك المستحضرات[1]، كما ذكرت بعض الإحصاءات أنّ الولايات المتحدة الأمريكية يدخلها سنويًا أربعة آلاف جنين، عن طريق مافيا الأجنة، من أجل هذه الصناعات وغيرها.

أليس الإنسان أفضل الكائنات؟

ألم يفضّله الله تعالى على كلّ ما في الكون؟

(١) The Washington Times - Tuesday, November 3, 2009

فكيف تتجرأ شركات تجارية همها الربح على أن تستخدم «الأجنّة» البشرية كمادة تجارية؟!

ثمّ إنّ هنالك مشكلة كبرى في التعامل مع الصناعات التي صنعها البشر، فهذه الآلات إنّما صُنعت لكي تكون في خدمة الإنسان، ولكن عملياً أصبح الإنسان في خدمتها، والعتب هنا ليس على الآلات، لأنّ الآلة لا حول لها ولا قوّة، وإنّما صانع الآلة هو الذي جعلها تسخّره وتجعله عبداً لها.

بهذه المقدّمة نكون قد أجبنا ولو بشكل غير مباشر على السؤال الذي طرحناه في البداية.

لا مانع لدى أصحاب بعض الحضارات من التضحية بعشرات الألوف من الناس في سبيل تحقيق التقدّم في جانب مادي من جوانب الحياة، كما حصل في بناء الأهرامات في مصر.

ففي الحضارة الزائفة يُستعبد الإنسان ويذوق العذاب، بل وتبنى على أشلائه تماثيل وناطحات السحاب، وترسانات نووية، فيصبح الناس ضحية الوسيلة.

في حين أنّ الإنسان قادر على بناء ذلك كلّه دون أن يُقيّد بالسلاسل، أو يُضرب بالسياط، وتُزهق روحه، ويُراق دمه.

ثمّ إنّ الطغاة يستعبدون الشعوب من أجل مصالحهم هم، لا من أجل مصالح شعوبهم، بينما تستطيع الأمّم أن تبني حضارتها بالحرّية والكرامة، وليس بالاستعباد والقهر والسياط.

الحضارة الحقة هي التي تجعل الإنسان محور اهتمامها، ولذا لا تفرّق بين الأبيض والأسود، وبين الأصفر والأحمر.. فالجميع فيها سواسية، وكلهم متساوون أمام القانون، ولهم حقوقهم الكاملة في التمتع بنتائج الحضارة، بعد أن ساهم الجميع في صناعتها.

وعلى خلاف ذلك تجد أن المدنية القائمة تجعل رضا قوم من الناس هو الهدف الذي تبذل قصارى جهدها لنيله، وتوفر له كلّ ما يحتاج، وإن كان ذلك على حساب مصادرة حقوق الآخرين، فهذه الحضارة لا تنظر إلى الناس نظرة متساوية، فالإنسان عندها هو قوم معين، وليس كلّ إنسان.

فمثلاً لا تهتم هذه الحضارة بالإنسان الافريقي أو الهندي أو الذي يخالفهم في العقيدة والتفكير، فلو أخذنا مثلاً السياسة الأمريكية إزاء شعوب العالم الثالث، لوجدناها قائمة على دعم حكوماتها الظالمة، التي تقوم بممارسة القمع والظلم ومصادرة حريات هذه الشعوب، دون الاهتمام بالشعوب نفسها.

ولا شك أنّ الحضارة الحقّة هي التي تطالب تعاليمها بالدفاع عن الحقوق، ومواجهة الظلم والعدوان عن الجميع، بعيداً عن المصلحة والمنفعة.

إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام حينما خاصمه النصراني على درعه -وقد كان الإمام عليه السلام حينها هو الحاكم- لم يأخذه بالقوّة، وإنّما ذهب مع النصراني إلى القاضي وتحاكم عنده، فقال عليه السلام: «**إِنَّ هَذِهِ دِرْعِي لَمْ أَبِعْ وَ لَمْ أَهَبْ**».

فقال النصراني: ما الدّرع إلّا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

فالتفت القاضي إلى الإمام علي عليه السلام قائلاً: يا أمير المؤمنين هل من بيّنة؟

فقال عليه السلام: «**لَا**».

فقضى القاضي بالدرع للنصرانيّ.

فمشى النصرانيّ هنيئة ثم أقبل، فقال: أمّا أنا فأشهد أنّ هذه أحكام النبيين، أمير المؤمنين يمشي إلى قاضيه وقاضيه يقضي عليه! أشهد أنّ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين.

قال عليه السلام: «**أَمَّا إِذَا أَسْلَمْتَ فَهِيَ لَكَ**»، وحمله على فرس[1].

لقد كان الإمام عليه السلام آنذاك رئيس الدولة الإسلامية، وكان وفقاً للحسابات التقليدية قادراً على حسم القضية لصالحه بواسطة الأدوات السلطوية المتوفرة لديه، غير أنّ للإسلام رؤيته الإنسانية السامية التي لا تفرّق بين إنسان وآخر، وإن كان أحدهما نصرانيّاً، والآخر هو خليفة للمسلمين.

وفي المقابل فإنّ المدنية التي تسخّر الإنسان لأغراض ومصالح خاصة هي في الواقع بعيدة عن المفهوم الحضاري المتكامل، كما أنّها في العادة تتميّز بالكذب والخداع، لتخفي عيوبها وتظهر نفسها بالمظهر الحضاري، فعلى سبيل المثال نرى اليوم الولايات المتحدة الأمريكية ترفع شعارات برّاقة وجميلة، وتدّعي أنّها أكثر الدول تقدماً في العالم، إلّا أنّها تخفي خلف هذه الشعارات عيوباً ومفاسد كثيرة.

لقد كشف تقرير للأمم المتحدة أعدّه فيليب ألستون[2] -مقرر الأمّم المتحدة بشأن الفقر المدقع وحقوق الإنسان- عن حجم الفقر في الولايات المتحدة في عهد الرئيس دونالد ترامب قائلاً:

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٣١٦.

(٢) فيليب ألستون (Philip Alston): خبير مخضرم في شؤون حقوق الإنسان بالأمّم المتحدة، وأستاذ قانون في جامعة نيويورك، ومقرر الأمّم المتحدة بشأن الفقر المدقع وحقوق الإنسان.

«إن ما يصل إلى ٤٠ مليون شخص، أو نحو ١٢,٧ بالمئة من الشعب الأمريكي يعيشون في فقر، فيما يعيش ١٨,٥ مليون في فقر مدقع، ويشكل الأطفال واحداً من كلّ ثلاثة فقراء».

وأضاف: «إنّ الولايات المتحدة لديها أعلى معدل لفقر الشباب بين الدول الصناعيّة».

وخلص المحقق ألستون إلى أنّ الفقر في الولايات المتحدة واسع النطاق، ويستفحل في ظل إدارة الرئيس دونالد ترامب الذي يبدو أنّ هدف سياساته هو إلغاء شبكة الأمان التي تحمي ملايين الفقراء، فيما يكافئ الأغنياء، كما ودعا السلطات الأميركية إلى توفير حماية اجتماعية قوية ومعالجة المشكلات الكامنة وراء ذلك، بدلاً من معاقبة ومحاصرة الفقراء(١).

وهذا مثال واضح يدل على اضطراب المقاييس، الأمر الذي يؤدّي إلى التباين الخطير في إعطاء الحقوق ومراعاة المساواة بين أبناء الشعب الواحد، صحيح أنّ علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار الاختلاف في المهام والأدوار المناطة بشخص دون آخر، غير أنّ ذلك لا يعطي مبرراً لكي يعيش ذلك المواطن تحت خط الفقر.

(١) www.ohchr.org - 22 June 2018.

من هنا فلا يمكن أن نسمّي الدولة التي يُظلم فيها إنسانٌ واحد -حتّى لو كان في أقصى نقطة من جغرافيتها- لا يمكن أن نسميها دولة حضارية، إذ يجب أن يرفل الجميع تحت خيمة العدالة والمساواة، ولهم حقوقهم المضمونة، حتّى نعتبرها ذات صبغة حضاريّة.

* * *

ويمكن اكتشاف الفرق بين الحضارتين (المادّية والإنسانيّة) بمتابعة الحالات الاستثنائية، فعندما ندرس الوضع القائم في أية دولة من خلال تعامل النظام مع السجناء مثلاً، ونتساءل هل تتم المعاملة معهم كأناس لهم كرامتهم وحقّهم في الدفاع عن أنفسهم، أم يُتعامل معهم كحيوانات، بل بأسوأ مما يُتعامل مع الحيوانات؟

إنّ الحضارة الحقيقية هي تلك التي تسخّر الآلة للإنسان، لا التي تسخّر الإنسان للآلة، ومتى ما توفّرت للإنسان حقوقه المادية والمعنوية من الأكل والشرب، وإبداء الرأي، وحرّية العقيدة، فعندئذٍ ستكون الحضارة كفيلة بإسعاده، وبرفعه إلى مستوى الرقي والسلام.

تلك هي الحضارة الحقيقيّة التي تستحق التضحية بالعشرات لإنقاذ الملايين، وليس العكس: التضحية بالملايين لمصلحة العشرات.

نظرة.. وحضارة!

العين التي ينظر بها الإنسان إلى جهود الآخرين ونتاجهم تختلف من شخص إلى آخر، فثمّة من ينظر بعين العاشق الولهان الذي لا يرى من معشوقه إلّا الجمال والخير والصلاح، فإذا أساء صاحبه اعتبره فضلاً وإحساناً، وإذا تجاوز الحد اعتبره شجاعة، وإذا سكت عجزاً، اعتبر سكوته حكمة.. وهكذا.

وتكون الحالة النفسيّة لدى أمثال هؤلاء حالة شاذّة، ولذلك فالعاشق لا يتمكّن من رؤية أية نقطة سوداء في حياة معشوقه، حتّى قيل لمجنون ليلى الذي هام بحبّ ليلى، إنّ معشوقتك ليست جميلة.

فأجاب: لو جلستم على أهداب عيني، لما رأيتم في معشوقتي أي قبح، أو عيب، أو نقص.

وكذلك كان جواب بثينة لعبد الملك بن مروان، حين قال لها في مجلسه: إني لا أرى فيك ما قاله جميل.

فأجابته: يا هذا إنّه كان يرنو إليّ بعينين ليستا في رأسك.

فالعين العاشقة لا تقيّم الأمور بشكل موضوعي.

وثمّة فريق آخر ينظر بعين العدواة والكراهية، فنظرته معاكسة لنظرة العاشق فهي دوماً ترى الأمور قبيحة ومستهجنة، وترفض كلّ شيء، فهي لا ترى من الصفحة البيضاء إلّا النقطة السوداء فيها، ومن الناس إلّا أخطاءهم، ومن أي نتاج إلّا قبحه ومساوئه.

ولو قيّمنا النظرتين لوجدنا أنّهما متساويتان من حيث النتيجة السلبية.

وفي المساحة بين نظرة العشق ونظرة العداء، هنالك نظرتان أخريان أيضاً؛ فهنالك نظرة الرقيب، ونظرة التلميذ، فالرقيب ينظر إلى الأمور بدقة وبتفحص ويبحث في المناهج والأسس التي يقوم عليها الشيء، والتلميذ يتواضع أمام أستاذه ويهيّئ نفسه لتقبّل تعليماته، إلّا أنّ نظرة الرقيب لوحدها قد تُوجد حالة التعالي والغرور، وكذلك نظرة التلميذ لوحدها قد تُؤدي إلى الانخداع بما يقوله الأستاذ.

إنّ الدمج والموازنة بين نظرة الرقيب ونظرة التلميذ يعطينا النظرة الواقعية الصائبة التي تعطي كلّ شيء حقّه، ذلك أنّ نظرة

الرقيب لا بأس بها، ولكنّها لوحدها غير صالحة دائماً، ونظرة التلميذ لوحدها أيضاً ليست صحيحة دائماً، لأنّ نظرة الرقيب تُورث التعالي وتُفسد الإنسان والعمل، وأمّا نظرة التلميذ لوحدها تجعل التلميذ ينظر إلى أستاذه على أنّه متقدم عليه ولا بدّ من التعلم منه، ولذلك قد يرى بعض أخطاء أستاذه فيتغاضى عنها.

ولكن عند الدمج بين النظرتين يكون التلميذ قادراً على اكتشاف أخطاء أستاذه لدى التقييم، وفي نفس الوقت لديه قابيلة أخذ الأمور الصائبة وعدم التعالي على أستاذه.

لقد زوّد الله تبارك وتعالى جميع البشر، من أقصى الصين إلى أقصى منطقة في الولايات المتحدة الأمريكيّة، بالعقل والذوق، وبنى نفوسهم على الفطرة، ولا يختلف الإنسان في ذلك عن أخيه الإنسان مهما اختلف لونه أو شكله أو قوميّته، فقد خلقهم الله عزّ وجلّ جميعاً على سنّة واحدة وزوّدهم بوسائل التقدّم مثل الوعي والإدراك، وسنّ لهم القانون الإلهي الذي كشف عنه في قوله تعالى: **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾**(١).

فاليابانيّون سعوا في بناء حضارتهم بعقولهم، وبذلوا قصارى

(١) سورة النجم الآية، ٣٩.

جهدهم، فكانت النتيجة أنّ العالم يشتري ما يُنتجون من البضائع، ويستفيد منهم بعض البشر، ويتلمذ على أيديهم.

والسؤال هنا هو: كيف توصّل اليابانيّون إلى هذا التقدّم وكيف كانت نظرتهم إلى العالم؟ وكيف يجب أن تكون نظرتنا نحن إلى الدول الصناعية المتقدّمة؟

نحن المسلمون كنّا -ولفترة طويلة من الزمن- آباء العلم، وبفضل الإسلام كنّا صنّاع الحضارة، والعالم يشهد لنا بذلك، إلّا أنّنا بعد ذلك أسلمنا جفوننا للنوم، فطال بنا المنام، وتقدّم الآخرون، إذ لم يجعل الله عزّ وجلّ التقدّم حكراً في هذه الحياة علينا، ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[1].

فمن يزرع يحصد، ومن يعمل يرى نتاج عمله، وهذه سنّة الله تعالى في الحياة، لكننا دخلنا في سبات عميق، وعندما استيقظنا رأينا غيرنا قد تقدّم وأنتج وغزا العالم بمنتجاته.

النقطة المهمة اليوم هي تحديد نوع النظرة التي سننظر بها للحضارات الأخرى ولمن تقدم علينا، إذ لا بدّ أن ننظر لمناهجهم

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٠.

ونتاجهم بنظرة موضوعية عادلة، لا نظرة العاشق الولهان، ولا نظرة العدوّ الغضبان، لأنّ كلتيهما خاطئتان.

فإذا ألغينا الحضارة الأوروبية بجرّة قلم، وألغينا وجودها في أذهاننا، فهل تتبخّر هي، أم أنّها تستمر في الإنتاج وتغزو مخادع نومنا؟

إنّ ذلك التقدّم لم يأت من فراغ، ولا يمكن أن يُلغى بمجرد إنكاره، وكذلك لا يستفاد منه بمجرد الإعجاب به.

وفي الحقيقة إنّ نمو الحضارات يشبه نمو الكائنات، فهي تنمو ضمن بيئة مناسبة مع توفر مجموعة من الشروط الملائمة، فلا يمكن أن نلغي الشروط الأساسية لبناء الحضارات ونموها، ثمّ نندب حظنا.

ترى لماذا استطاع الآخرون أن يكتشفوا الذرّة ويفجّرونها ولم نكتشفها نحن؟ بالرّغم من أنّ القرآن الكريم قد أشار إليها؟.

إنّ الله قد أوجد آبار النفط في أرضنا، ولكن جاء غيرنا واكتشفها، واستخرجها، وحوّلها إلى صناعات، ومن ثمّ يبيعها علينا بأغلى الأثمان على شكل قطع مصنّعة.

فالخطأ يكمن في التفكير والمنهج، ومن ثمّ في الأساليب وطرق

العمل.

إنّ البناء الحضاري اليوم يعتمد على نظرتنا إلى الحضارات الأخرى، والتي يجب أن لا تكون نظرة عشق وذوبان، وكذلك يجب أن لا تكون نظرة عداوة وإلغاء، وإنّما نظرة الرقيب في بعض الأمور، ونظرة التلميذ في أمور أخرى؛ فالرقيب فيما يرتبط بالمنهج، والتلميذ فيما يرتبط بالصناعات والإنجازات، دون إلغاء هويّتنا وقيمنا.

إنّ هذه المنهجية هي التي اتّبعها اليابانيّون في تقليدهم للحضارة الغربية، ومن المؤسف أنّنا نظرنا إلى حضارة الغرب نظرة العاشق، فحينما يشتري أحدنا سيّارة فارهة من إنتاجهم، فهو يتصوّر بأنّه قد جلس على كرسي العرش، أو أنّه قد صعد على ظهر القمر.

أمّا اليابانيّون فإنّهم قد نظروا لها نظرة مزدوجة؛ نظرة التلميذ ونظرة الرقيب.

يقول صاحب شركة سوني «كيو موريتا» عن تأسيس شركته:

كان هنالك شخصان أحدهما يابانيّ، والآخر أمريكيّ، يمشيان في غابة، فتعقبهما أسد ضارٍ، فخلع اليابانيّ حذاءه ليفرّ من الأسد، فقال له صديقه الأمريكيّ:

هل تظن إذا خلعت حذاءك، أنّك تسبق الأسد؟

قال اليابانيّ: كلاّ، ولكن على الأقل إنّي سأسبقك، فيصل إليك الأسد أولاً، وينشغل بك، وأنا أنجو منه!

ثمّ يستطرد قائلاً:

في بداية عملنا أردنا صناعة جهاز تسجيل، ولكن لم يكن في حوزتنا أي جهاز تسجيل ليمكننا تقليده، فاستعرنا جهاز تسجيل من أحد الجنود الأمركيين، وحينما فتحناه دهشنا لما فيه من الأجهزة، ورأينا أنّنا غير قادرين على صناعة شبيه له، فقررنا أن نصنع مجرد «شريط» للتسجيل، ولم تكن صناعة مثله صعبة، وبالفعل قمنا بإنتاجه، وتلك كانت بداية تأسيسنا لشركة سوني، وقد بدأنا العمل برأسمال قدره ٥٠٠ دولار، وكان مبلغاً لا بأس به على ما يبدو في ذلك الوقت، وكان عددنا قليلاً فقد كنّا لا نتجاوز الخمسة أشخاص.

ويضيف الرجل: وهكذا خلعنا أحذيتنا، وبدأنا نتسابق مع الأمريكان، كي لا يلتهمنا وحش التخلّف.

ومثل هذه النظرة هي المطلوبة منّا، بأن ننظر إلى تقدم غيرنا بنظرة الرقيب تارة، وبنظرة التلميذ تارة أخرى، حتّى نتمكّن

من النهوض بما نستفيده من حركة الآخرين، فنعرف الطريق المحصّن، ونصل إلى بناء حضارة عصريّة، ونرفع مستوى شعوبنا فلا نبقى في عداد المستوردين فقط، حيث نضخ النفط والأموال في جيوب غيرنا.

إنّ الاعتماد على نظرة واحدة وضيقة تضيّع علينا فرصنا في التقدّم، وتجعل من نظرتنا للحياة أحادية ذات نمط رتيب واحد، أو تجعلنا جامدين على ما نحن فيه من التقوقع والانغلاق والتخلّف، علينا أن نتخذ موقع الرقيب منهم، كي نتحرّر منهم ولا نخضع لكلّ مخططاتهم وإراداتهم، فبناء حضارتنا في الوقت الذي يحتاج منا إلى التتلمذ على أيدي من سبقونا يحتاج -وهو الأهم- إلى تقييم مناهجهم، وفق قيمنا ومبادئنا كي لا نذوب فيهم، ونعيد تكرار أخطائهم.

وقد تحدّث معنا الله تبارك وتعالى في معظم آيات القرآن باعتبارنا حملة رسالة سماوية لكلّ العالم، ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ..**﴾[1]، وهذا يجعل مسؤولياتنا مضاعفة تجاه أنفسنا وتجاه البشرية، إضافة إلى

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

المميّزات التي نمتلكها سواء الماديّة أو المعنويّة، والتي تؤهلنا لأن نكون رواد الحضارات، إلّا أنّنا أغفلنا كلّ ذلك وضيعنا مناهجنا واستغل الآخرون ذلك، فحوّلوا ثرواتنا إلى أسحلة يحاربوننا بها، فانقلبت ثرواتنا ضدّنا، وجعل منها الأعداء نقمة على شعوبنا، وذلك لعدم استخدامنا لهذه الثروات بالشكل الصحيح.

إنّ الخطوة الأولى للقيام من كبوتنا هي في الثقة بأنفسنا، وأن نؤمن بأنّه لا فرق بين عقل وآخر، وقد ذلّل الله تبارك وتعالى لنا الأرض وما فيها وما عليها تذليلاً، لكننا باتخاذ موقف العاشق ضيّعنا جميع ما نملك، وبقينا نمدّ يد الاستجداء لغيرنا.

لماذا سقطت حضارة المسلمين؟

لماذا بادت حضارة المسلمين؟

ومنذ متى بدأ الضعف ينخر في دولتهم؟

إنّ البعض يعتبر عصر هارون المسمى بـ«الرشيد» هو العصر الذهبي في حضارة المسلمين، ويستدلّ هؤلاء بما كان يخاطب به هارون السحاب قائلاً: «أمطرْ حيثما شئت، فإنّ خراجك عندي».

غير أنّ من يربط النتائج بأسبابها، ويبحث عن جذور الأحداث، يعرف جيّداً أنّ حضارة المسلمين بدأت تترنّح، ثمّ تهوي إلى الحضيض مع بداية عصر هارون، فمع نهاية خلافة الإمام عليّ عليه السلام دبّ فساد عريض في الدولة. واستمرّ الضعف الحقيقي المتمثّل بالاستبداد والفساد ينخر في جسد النظام، ويستشري الظلم بين الناس إلى أن وصل إلى ذروته في عهد هارون، الذي كان لا يهتمّ إلّا بملذّاته وشهواته، وليس أدلّ على ذلك من قولته السالفة: «فإنّ خراجك عندي»، فالذي كان يهمّه من السحاب لم

يكن الضرع والزرع، الذي ينفع الناس، بل «الخراج» الذي يصل إليه.

أمّا داخل أجهزة الدولة، فإنّ القرارات في أعلى السلطات كانت تُتّخذ حسب الأهواء، وفي ظل الخمر والميسر، وممارسة كلّ حرام..

أمّا مصالح الناس فقد كانت آخر ما يفكّر فيه الحكّام.

وإليكم نموذج واحد لذلك، وفيما يلي التفاصيل:

قال إسحاق الموصلي: حضرتُ يوماً باب أمير المؤمنين الرشيد، فقيل لي: «إنّه نائم».

فانصرفت، فلقيني جعفر البرمكي وزير هارون المقرّب إليه، فقال لي: «ما الخبر؟».

فقلت: «أمير المؤمنين نائم».

فقال: «فسِرْ بنا إلى منـزلي حتّى تخلو بقيّة يومنا، وتغنّيني وأغنّيك»، فذهبت معه.

فصرنا إلى منـزله، فطرحنا ثيابنا، ودعا بالطعام فطعمنا، وأمر بإخراج الجواري وقال: ليس عندنا من تحتشم منه. فلمّا وُضِع

الشراب دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا بخلوق فتخلّق به، ثمّ دعا لي بمثل ذلك، وجعل يغنّيني وأُغنّيه، ثمّ دعا بالحاجب وأمره بألاّ يأذن لأحد من الناس، وإن جاء رسول أمير المؤمنين أعلمه أنّه مشغول، ثمّ قال:

- «أمّا إن جاء عبدُ الملك فَأذَنوا له».

وكان عبد الملك رجلاً يأنس به البرمكي ويمازحه، ويحضر خلواته.

ثمّ أخذنا في شأننا نلعبُ ونغنّي ونشرب، فوالله إنّا لعلى تلك الحالة إذ رُفع السَّتْر، وإذا عبد الملك بن صالح قد أقبل، وقد أخطأ الحاجب ولم يفرّق بينه وبين عبد الملك الذي كان يأنَس به جعفر. وكان عبد الملك بن صالح من جلالة القدر والتقشّف وفي الامتناع عن منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل، وكان هارون الرشيد قد اجتهد به أن يشرب معه أو عنده قدحاً، فلم يفعل رَفْعاً لنفسه.

فلمّا رأيناه مقبلاً، أقبل كلّ واحد منّا ينظر إلى صاحبه، وكاد جعفر أن ينشقّ غيظاً وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحونا، ورمى طيْلسانَه جانباً، ثمّ قال: «أطعمونا شيئاً». فدعا له جعفر بالطعام وهو منتفخ غضباً. فطعم، ثمّ دعا برطل من النبيذ فشربه، ثمّ قال:

«أشركونا فيما أنتم فيه!».

ودعا بقميص حرير وخَلوق فلبس وتخلّق، مثلما فعلنا، ثمّ دعا برطل ورطل حتّى شرب عدّة أرطال من النبيذ، ثمّ اندفع ليغنّينا، فكان أحسننا جميعاً غناء.

فلـمّا طابـت نفـس جعفـر وسُرِّي عنـه مـا كان به، التفـت إليه فقـال له:

- «اذكر لي حوائجك».

فقال عبد الملك: «ليس هذا موضعَ حوائج».

فقال جعفر: «لتفعلنّ».

ولم يزل يُلحّ عليه حتّى قال عبد الملك: «إنّ أمير المؤمنين عليَّ غاضب؛ فأُحبّ أن تترضّاه».

قال جعفر: «فإنّ أمير المؤمنين قد رَضِيَ عنك، فهاتِ حوائجك».

فقال: «هذه كانت حاجتي».

قال: «ارفع لي ببقيّة حوائجك كما أقول لك».

قال عبد الملك: «عليَّ دَينٌ فادِح».

قال جعفر: «تُحمل إليك من مال أمير المؤمنين غداً أربعة آلاف ألف درهم. فَسلْ أيضاً».

قال عبد الملك: «ابني، تُكلِّمْ أمير المؤمنين حتّى يُنَوِّه باسمه».

قال جعفر: «قد ولاّه أميرُ المؤمنين مصر، وزَوَّجَه ابنته العالية، ومَهَرَها ألفي ألف درهم».

فقلت في نفسي: قد سَكِرَ الرجل وقال ما قال عن سكر وعربدة. فلمّا أصبحتُ لم تكن لي همَّة إلّا حضورَ دار الرشيد، وإذا جعفر البرمكي قد بكّر، ووجدتُ في الدار جَلَبة، وإذا أبو يوسف القاضي ونُظراؤه قد دُعِيَ بهم، ثمّ دُعِيَ بعبد الملك بن صالح وابنه فأُدخلا على الرشيد.

فقال الرشيد لعبد الملك: «إنّ أمير المؤمنين كان غاضباً عليك وقد رَضيَ عنك، وأمر لك بأربعة آلاف درهم، وزَوَّج ابنَك من «العاليةَ» بنت أمير المؤمنين، وأمهرتُها عنه ألفي ألف درهم، وولّيتُه مصر».

فلمّا خرج جعفر سألتُه عن الخبر، فقال:

- «بكّرت على أمير المؤمنين، فحكيتُ له ما كان منّا وما كنّا فيه حرفاً حرفاً، فعجب لذلك وسُرّ به، ثمّ قلتُ له: قد ضَمِنْتُ له

عنك يا أمير المؤمنين ضماناً. فقال: ما هو؟ فأعلمتُه.

فقال: أَوْفِ له بضمانك. وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت»[1].

وهكذا كانت تتخذ القرارات الهامّة في دولة الرشيد على وقع كؤوس الخمر، وأصوات الغناء، وطلبات المتزلّفين.

ولهذا، وأمثاله سقطت حضارة المسلمين.

(١) – كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني.

نحو نهوض حضاري

نحن ننتمي إلى حضارة سابقة، ولكننا نعيش في ظل حضارة قائمة..

ولذلك فنحن نعيش في منطقة جذب ما بين الماضي الذي فيه جذورنا، والحاضر بما فيه من تناقض مع تاريخنا، وأحياناً مع قيمنا..

فنميل تارةً إلى أصالتنا، ونميل تارةً أخرى إلى ظروفنا، ولربما عاش بعضنا حتّى مماته في حالة من التناقض الحادّ، ولذلك لا بدّ أن نعرف من نحن؟ وأين نحن؟ وأن نفهم حضارتنا، وأن نعرف حضارتهم.

إنّني أرى أنّ هنالك اختلافات أساسية بين الحضارة الغربية وبين حضارتنا، وهذا لا يعني أنّ إيجابيات الحضارة الغربية، بما في ذلك بعض النقاط في المنهج، يجب أن لا تؤخذ بعين الاعتبار.

ولا أرى المقاطعة حلاً..

كما لا أرى الانبهار والتقليد حلاً..

كما أنّ محاولة الاستنساخ التي ينادي بها البعض، أو يقوم بها البعض هي الأخرى فاشلة، صحيح أنّنا ذكرنا أنّه يمكن استيراد وتصدير الحضارات، ولكن ليس بالأسلوب والطريقة التي ينادي بها المنبهرون بالغرب، فكما ذكرنا سابقاً فإنّ من أراد استيراد الحضارة فليتعلّم العلم، وليمتلك عناصر القوّة، بما في ذلك المال والرجال، والتنظيم الدقيق للحياة، والاهتمام بالعلوم وما أشبه.

إنّ الدعوات إلى الاستنساخ الأعمى للحضارة الغربية هي محاولة مغرضة من قبل البعض، بالإضافة إلى أنّها فاشلة، لأنّ أصحاب هذه المحاولة لا يريدون أن يقيموا لنا حضارة، إنّما يريدون أن نبقى تابعين للحضارة القائمة، وهكذا فإنّي أخلص إلى ما يلي:

- **أوّلاً**: لا بدّ أن نفهم الحضارة القائمة بمقاييسها ومناهجها.
- **ثانياً**: لا بدّ أن نفهم أنفسنا وبيئتنا، ولا بدّ أن ندرس قيمنا ومُثلنا والمبادئ التي قامت عليها حضارتنا، ومن ثمّ نتصارع مع الحضارة القائمة، نتفاعل معها حيناً، ونختلف معها حيناً أخرى، لكي ننتهي إلى بناء حضارتنا.

إنّنا اليوم مدعوون إلى نهوض حضاري شامل، لكي نعيد لأمّتنا مكانتها التي تستحقها، ولكن هذا النهوض لن يكون بالتمنّيات وإنّما بالعمل الجاد والمخلص، صحيح أنّنا نرى بعضاً من بوادر النهوض الحاضري في أمّتنا، كما نرى الحيوية لدى المؤمنين العاملين في كثير من الساحات، إلّا أنّ هذا لا يكفي، بل نحن بحاجة إلى نهضة شاملة على كلّ المستويات، وهذه النهضة لها شروطها وأسبابها.

ولنضرب مثلاً بزيارة الأربعين إلى مقام الإمام الحسين عليه السلام التي تتجدد كلّ عام، وتتمظهر خلالها سمات النهوض الحضاري، فزيارة الأربعين بالدرجة الأولى هي قيام لله عزّوجل ولإحياء الدين.

وكذلك أيّ نهوض حضاري لنا لا بدّ أن يتميّز بكونه لله تعالى، كما أنّ زيارة الأربعين تعتمد على الجماهير المؤمنة، دون تفرقة بين جنسياتهم أو أعراقهم أو انتماءاتهم، وهذا شرط أساسي في أي نهوض حضاري لأمتنا، كما أنّ زيارة الأربعين تتميّز بتكاتف الجهود وتكثيفها في مدة زمنية قياسية، وهو في الحقيقة ما نحتاجه اليوم من أجل النهوض الشامل، فلا يمكن النهوض بالأمّة دون

تظافر جهود أبنائها وتكاتفهم.

صحيح أنّنا في بعض الأحيان نشعر بخيبة الأمل من أوضاعنا، إلّا أنّ النور بدأ يتشعشع في ديجور الظلام الذي خيم علينا لعصور طويلة من قباب ضريح الحسين عليه السلام، رائد الإصلاح في هذه الأمّة، وقائد التصحيح فيها.

مدن الملح وبيوت العنكبوت!

الحقيقة دوماً هي سيّدة الموقف، وهي التي تنتصر في آخر المطاف!

والتزوير والالتفاف على الحقّ، قد يتحقّق لمدة من الزمن، فربما يُكتب النجاح لمن يخدع الناس لأيّام، لكن سنّة الله تعالى ومشيئته تأبى أن يدوم الكذب والتزوير، ذلك لأنّ بناء الكون قائم على الحق وليس على الباطل، ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ..**﴾[1]، فالنظام الذي أقامه الله عزّ وجلّ من الأفلاك والمجرّات، والكائنات يأبى أن يستوعب إلّا ما هو حقّ.

ربّما ينتحل إنسان ما شخصيّة كاذبة لفترة من الزمن، ولكن سرعان ما تنكشف الحقيقة، وتسقط الأقنعة، ويُفتضح الكاذب.

فالذي يُوحي للناس أنّ بيده الحلّ والعقد، والأمر والنهي، والموت والحياة -كما فعل فرعون ونمرود اللذان ادّعيا الربوبيّة- ستكون عاقبته مثل كلّ الطغاة، الذين لقوا حتفهم، وذاقوا

(١) سورة الأنعام، الآية٧٣.

الأمرّين، خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

يُحكى أنّ أحد الطغاة جاء بقنينة فيها أوساخ، وتركها فترة من الزمن حتّى تحوّلت الأوساخ إلى ديدان صغيرة، فجمع الناس وقال لهم:

أنا خالق هذه الديدان!

فانبهر به الناس، حتّى كادوا يعبدونه من دون الله تعالى، إلّا أنّ إنساناً مؤمناً في تلك البلاد بادره بالقول:

إذا كنت خالقها فافصل بين ذكورها وإناثها، واذكر لنا عدد ذكورها وإناثها؟!

فبُهت الذي كفر.

إنّ قانون الحقيقة يجري على الأمور كافّة، ولا فرق في كون الباطل كذباً أو سرقة أو قتلاً.. فـ «**الصِّدْقُ يُنْجِي، الكَذِبُ يُرْدِي**»(١)، و«**يَبْلُغُ الصَّادِقُ بِصِدْقِهِ مَا لاَ يَبْلُغُهُ الكَاذِبُ بِاحتيالِهِ**»(٢) كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

فالحقيقة هي الناجية، والناجحة، والباقية، أمّا الزيف والخداع فهو سيهوي بصاحبه إلى وادٍ سحيق.

(١) غرر الحكم، ح٤٣٢٠.
(٢) غرر الحكم، ح٤٣٥٧.

فالنتيجة أنّ الحقائق هي التي تنتصر، وليس مظهر القوّة.. والقيم هي التي تسود، وليس التظاهر بها.

فالحاكم الذي يحكم بلاداً ويغيّر أسماء شوارعها ومناطقها كافّة باسمه، ويدفع الناس للاحتفال بمناسباته الشخصية كيوم ميلاده، ويوم ختانه، وزواج ابنه... هذا الحاكم لن يدوم له الملك، وقد رأينا كيف أنّ أمثال هؤلاء حينما يسقط فإنّ اسمه يصبح تهمة، وهو الذي كان اسمه يملأ كلّ مكان وكلّ زمان، وقد ربط كلّ شيء بنفسه، لكن المظاهر زالت ولم تبق سوى الحقائق.

ومن المؤسف أن يفهم الإنسان ذلك ويدركه بوجدانه، ولكن غبار المجتمع والمظاهر المخادعة تجعل من رجل ليس له شيء يذكر به، إلّا أنّ قليلاً من الدعاية والإعلام والأموال ترفعه ليصبح شيئاً مذكوراً.

هناك نوع من الحلاوة تباع في العراق وتسمّى بـ «بيض اللقلق» وتملأ عين الأطفال بحجمها المغري، ولكن بمجرّد أن تضعها في فمك تتحوّل إلى مقدار حبّة شعير من الحلاوة، وتذوب كرغوة الصابون.

ونظرية «بيض اللقلق» حاكمة على عقول الكثير من الناس، فهم يلهثون وراء مظاهر كاذبة ﴿..**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ**

مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

وكذلك فيما يرتبط بالحضارات، فهنالك من الحكام من يمتهن التزوير والكذب، ويشتري الأبواق الإعلامية بالترغيب والترهيب، ويحاول أن يتمظهر بمظاهر الحضارة المتقدمة، بل إنّه يدّعي أنّه الأفضل، وأنّ حضارته المدّعاة هي الأقوى، إلّا أنّ أمثال هؤلاء ينكشفون للناس عاجلاً أم اجلاً.

لقد حاول طاغية العراق صدام حسين أن ينسب لنفسه الكثير من الأمور كذباً، كما حاول أن يزوّر التاريخ والحقائق لكي يظهر بمظهر البطل المنقذ للأمّة، وكان دائماً ما يتغنى ببطولات وإنجازات وهمية، حتّى أنّ البعض صدّقه، وعاش وهو يظن أنّه يعيش في أفضل الدول وأكثر الحضارات تقدماً، إلّا أنّ هذا الطاغية حينما سقط تبخرت معه كلّ أكاذيبه، واختفى حزبه الأوحد الذي أكل الأخضر واليابس، وعذّب الناس باسم التقدمية والتطور الإنساني.

حقّاً إنّ المظاهر والحركات الاستعراضية لا تقيم حضارة، فإذا أقامت حضارة كانت هشّة كمدن الملح وبيوت العنكبوت.

---

(١) سورة النور، الآية ٣٩.

الفهرس

سلسلة الفكر الرسالي

1
سلسلة الفكر الرسالي
قراءة في
منهج تفسير القرآن
عند المرجع المدرسي
تفسير بيّنات من فقه القرآن
تفسير من هدى القرآن
السيد محمود الموسوي

2
سلسلة الفكر الرسالي
كلام
عن الدين والحداثة
رؤية رسالية
سماحة العلامة السيد جعفر العلوي

3
سلسلة الفكر الرسالي
التحولات الحضارية
والبنية الثقافية عند بني إسرائيل
سماحة الشيخ علي هلال الصيود

4
سلسلة الفكر الرسالي
القرآن والتأصيل العقائدي
الإمامة نموذجاً
سماحة الشيخ عمار عبد العزيز المنصور

5
سلسلة الفكر الرسالي
فقه الثابت والمتغير
سماحة العلامة الشيخ عبد الغني عباس

6
سلسلة الفكر الرسالي
الأمثال القرآنية
عند المرجع المدرسي (دام ظله)
الشيخ محمد حسن آل إبراهيم

7
سلسلة الفكر الرسالي
ركائز
المجتمع الإيماني
السيد سجّاد المدرسي

8
سلسلة الفكر الرسالي
ترويض الشيطنة
وبناء الأمة
رؤية رسالية في بناء الأمة الصالحة وعلاج الإرهاب
سماحة العلامة الشيخ محمد حسن الحبيب
مركز الفكر الرسالي للبحوث والدراسات

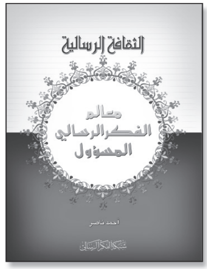
9
سلسلة الفكر الرسالي
مُستَنَد الروح
دراسات في فلسفة الأخلاق
سماحة الدكتور الشيخ حسن جمال البلوشي
مركز الفكر الرسالي

10
سلسلة الفكر الرسالي
التشريع الإسلامي
بين التفكير القيمي والتفكير المقاصدي
سماحة العلامة الشيخ معتصم السيد أحمد
مركز الفكر الرسالي

11
سلسلة الفكر الرسالي
قصص القرآن
ملامح في فلسفة التاريخ
سماحة السيد محمود الموسوي
مركز الفكر الرسالي

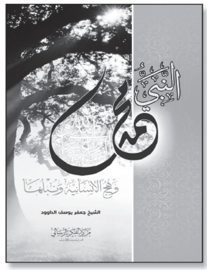
12
سلسلة الفكر الرسالي
كتاب الحضارة
سماحة آية الله السيد هادي المدرسي
مركز الفكر الرسالي

إصدارات متنوعة لمركز الفكر الرسالي

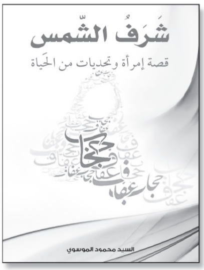


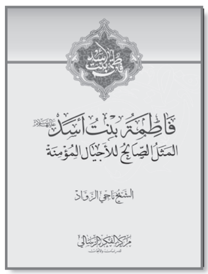


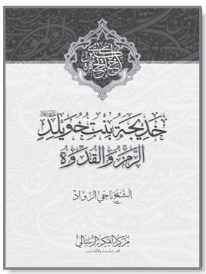




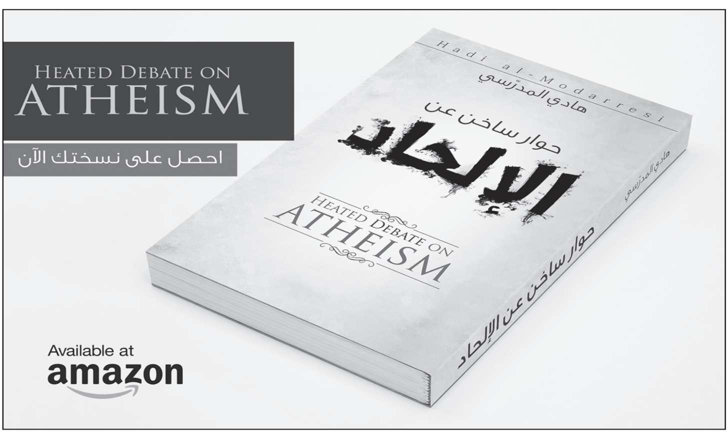












هذه الدراسة



إن خاصّية الممازجة بين روح النّص الديني ونور العقل وصراحته وواقعيته، هي الخاصية العامّة التي اتصفت بها هذه الدراسة، لتضاف إلى معالجات الفكر الرسالي في ساحة المعرفة، والمؤلف هو سماحة آية الله السيد هادي المدرسي - الغني عن التعريف - المفكّر الرسالي في مجالات شتّى فيما يرتبط بالدين ومقولاته ومعالجاته العقدية والمعاصرة، ولكن أهم ما يمكن أن يقال في هذا السياق، أن سماحته من الذين نثروا البذور الأولى في مسيرة الفكر الرسالي، وممن رفع بنيانه، وأوضح بنانه، ولمعالجاته القيمة تأثير بالغ في العقول، وكان سبّاقاً في الأطروحات المتجدّدة والمعالجات الحضارية المختلفة في مجال الحضارات وروح الدين وشموليته، والوثوق بقيم الدين في مختلف مناحي الحياة، منذ أكثر من أربعين عاماً.

www.resali.net
alfekralresali@gmail.com
www.facebook.com/resalinet
resalinet@facebook.com

12
سلسلة الفكر الرسالي